

المناظرة الاخيرة

A NOVEL BY

MOTAZ HAYSAM

رواية: المناظرة الأخيرة

بقلم: معتز هيثم

تاريخ الإصدار: 1 ديسمبر

المقدمة

يقولون دائماً أن الحب حرب، لكنهم نسوا أن يخبرونا أن أخطر المعارك ليست تلك التي نشنها ضد العالم لنبقى سويًا، بل تلك التي نشنها ضد بعضنا البعض.. لنثبت من كان على حق.

هذه ليست قصة عن البدايات الوردية، ولا عن اللقاءات الأولى التي تخطف الأنفاس. إنها قصة عن "النهايات" التي ترفض أن تنتهي. عن خمس سنوات من العمر، بُنيت طوبة تلو الأخرى بحب وشغف، ثم هُدمت في ليلة واحدة، في نقاش واحد، في "مناظرة أخيرة" لم يخرج منها أحد منتصرًا.

هنا، بين سطور هذه الرواية، ستلتقي بـ "مازن" و"هنا".. العاشقان اللذان ظنا أن حبهما حصن منيع، قبل أن يكتشفا أن الهشاشة كانت تتخرق في الأساسات. وستشهد محاولات النجاة والتشبث بالحياة عبر "حاتم" و"مي".. الأطراف الجديدة التي جاءت لترمم ما تبقى من حطام، دون أن يدركوا أنهم يسرون فوق أرض ملغومة بالذكريات. في الأول من ديسمبر، ومع برودة الشتاء التي تشبه برودة الفراق، نفتح الستار على حكاية كل واحد منا. حكاية الخيط الرفيع الفاصل بين الحب والتعود، وبين المضي قدمًا والالتفات إلى الخلف.

هذه الرواية لكل شخص تجاوز، لكنه في منتصف الليل.. لا يزال يتذكر.

عنوان الفصل	الفصل
خمس سنوات في إطار صورة	الفصل الأول
لغة الصمت	الفصل الثاني
تراكمات صغيرة	الفصل الثالث
الغريب الذي أحبه	الفصل الرابع
القشة التي قصمت	الفصل الخامس
شرارة الاشتعال	الفصل السادس
المناظرة الأخيرة	الفصل السابع
صباح اليوم التالي	الفصل الثامن
انسحاب الأعراض	الفصل التاسع
قائمة الممنوعات	الفصل العاشر
الوحدة تختار ضحاياها	الفصل الحادي عشر
محاولات فاشلة للنسيان	الفصل الثاني عشر
ظهور "مي": ضوء خافت في العتمة	الفصل الثالث عشر

عنوان الفصل	الفصل
ظهور "حاتم": الملاذ الآمن	الفصل الرابع عشر
الخطوة الأولى نحو الآخر	الفصل الخامس عشر
مازن ومي: اختبار القبول	الفصل السادس عشر
هنا وحاتم: البحث عن الاستقرار	الفصل السابع عشر
عقدة المقارنة	الفصل الثامن عشر
الخيانة بالذاكرة	الفصل التاسع عشر
طيف لا يغادر	الفصل العشرون
لقاء المصادفة	الفصل الحادي والعشرون
لحظة إدراك	الفصل الثاني والعشرون
إنصاف الحاضر	الفصل الثالث والعشرون
إغلاق الدائرة	الفصل الرابع والعشرون
ما تبقى منا (الخاتمة)	الفصل الخامس والعشرون

الفصل الأول: خمس سنوات في إطار صورة

كانت الصورة المعلقة على الحائط في منتصف غرفة المعيشة تختصر كل شيء. إطار خشبي عتيق يحيط بلحظة تجمد فيها الزمن؛ مازن بابتسامته الواسعة العفوية التي تجعل عينيه تضيقان حتى تكاد تختفيان، وهناء التي كانت تنظر إليه في الصورة بدلاً من النظر إلى الكاميرا، وكأن العالم كله بالنسبة لها ينحصر في ملامح هذا الرجل.

كانت الذكرى السنوية الخامسة. رقم يبدو صغيراً في عمر الزمن، لكنه في عمر الحب يعني جيشاً من الذكريات، ومعارك صغيرة تم تجاوزها، ولغة خاصة لا يفهمها سواهما.

جلس مازن على الطرف الآخر من الطاولة في مطعمهم المفضل، المكان الذي شهد أول اعتراف، وأول شجار، وأول صلح. كان يعبث بملعقة السكر في فنجان قهوته، عادة لم يتخلص منها رغم مرور السنين، وتوتره الذي يسبق أي كلام هام.

رفعت هناء عينيها إليه، تتأمل تفاصيله التي حفظتها عن ظهر قلب. الشيب الخفيف الذي بدأ يغزو فؤديه مبكراً، طريقتة في عقد حاجبيه عندما يفكر بعمق، ورائحة عطره التي أصبحت جزءاً من هواء رنتيها.

قال مازن فجأة، قاطعاً حبل أفكارها:

- "هل تصدقين أننا وصلنا إلى هنا يا هناء؟ خمس سنوات.. نصف عقد من الزمان."

ابتسمت هناء، ابتسامة هادئة تشبه طبيعتها:

- "أصدق، ولا أصدق. أحياناً أشعر أننا التقينا بالأمس، وأحياناً أشعر أنني لا أتذكر كيف كانت الحياة قبلك."

مد مازن يده ليمسك يدها فوق الطاولة، كانت يده دافئة، تمنحها ذلك الشعور المعتاد بالأمان، الأمان الذي ظنت أنه دائم.

- "لقد تغيرنا كثيراً، أليس كذلك؟" قالها مازن وهو ينظر في عينيها مباشرة.

ردت هناء وهي تعصر يده برفق:

- "نضجنا يا مازن. لم نعد طفلين طائشين كما كنا في الجامعة. الحياة صقلتنا، لكن الأهم أننا تغيرنا معاً، في نفس الاتجاه."

ضحك مازن بخفوت، ضحكة تحمل شيئاً من السخرية المحببة:

- "أتذكرين شجارنا حول لون الستائر؟ أو تلك المرة التي كدت تتركيني فيها لأنني نسيت موعدنا واتجهت لمشاهدة المباراة؟"

ضحكت هناء:

"كنت كارثياً في المواعيد، وما زلت تحاول التحسن. لكننا تجاوزنا ذلك. هذا ما يميزنا يا مازن، نحن لا نستسلم بسهولة. نحن فريق."

"فريق..". ردد مازن الكلمة وكأنه يتذوقها، ثم أخرج علبة صغيرة مغلفة بعناية من جيبه ووضعها أمامها. "كل عام وأنت شريكتي في هذا الفريق، وفي هذه الحياة."

فتحت هناء العلبة لتجد قلادة فضية رقيقة، تتوسطها جوهرة صغيرة زرقاء. لمعت عيناها بالدموع، ليس بسبب الهدية فحسب، بل بسبب الاستمرارية. في زمن تنتهي فيه العلاقات برسالة نصية، كانا هما يواصلان البناء.

"مازن.. إنها رائعة."

"ليست بروعتك." قالها بصدق، ثم تهجد تهجيدة بدت وكأنها تخرج من أعماق رنتيه، تهجيدة لم تفهم هناء معناها في تلك اللحظة. "أحياناً أخاف يا هناء."

تغيرت نبرة صوتها للقلق:

"مما تخاف؟"

صمت مازن للحظات، يراقبهما النادل وهو يضع طبق الحلوى، ثم قال بصوت خافت:

"أخاف من التعود. أخاف أن نستيقظ يوماً لنجد أننا معاً فقط لأننا اعتدنا ذلك، لا لأننا ما زلنا نحترق شغفاً. أخاف أن تصبح الخمس سنوات سجنًا بدلاً من أن تكون إنجازاً."

شعرت هناء ببرودة مفاجئة تسري في أوصالها رغم دفء المكان. كانت هذه هي المرة الأولى التي ينطق فيها مازن بشيء يمس وتر قلقها الدفين. لكنها، وكعادتها، اختارت أن تكون الطرف المطمئن.

"التعود ليس سيئاً يا حبيبي. التعود هو الراحة، هو أن تكون حقيقياً أمام شخص آخر دون أقنعة. ونحن لن نسمح للشعلة أن تنطفئ. أليس كذلك؟"

نظر إليها مازن، ورأى في عينيها ذلك اليقين الذي كان يفتقده أحياناً. ابتسم، لكن ابتسامته هذه المرة لم تصل لعينيها تماماً كما في الصورة المعلقة في منزلهم.

"بالتأكيد.. لن نسمح بذلك."

خرجا من المطعم ويدها في يده، يسيران في شوارع المدينة المضاعة. كانا يبديان للعالم الخارجي كزوجين مثاليين، قصة حب خرجت من رواية رومانسية. لكن، تحت ضوء أعمدة الإنارة، كان ظلّهما يمتدان على الأرض، يبتعدان ويقتربان بحسب زاوية الضوء، وكأن القدر يلح لما هو آت.

خمس سنوات من الحب، الثقة، والذكريات. كانا يقفان على قمة جبل شاهق بنياه سوياً، غير مدركين أن الهواء في القمة قد أصبح شحيحاً، وأن خطوة واحدة خاطئة.. قد تعني السقوط.

انتهى اليوم بصورة جديدة النقطاها بهاتفه، صورة أخرى ستضم للألبوم، وسينظران إليها يوماً ما ليتساءلا: كيف كنا نبتمس ونحن لا ندري أن النهاية كانت تختبئ خلف الكاميرا؟

الفصل الثاني: لغة الصمت

لم يكن الصمت في شقتهم فارغاً؛ كان ثقيلاً، لزجاً، يحتل المساحات الفارغة بين الأثاث ويمتد فوق الأرائك.

استيقظت هناء على صوت المنبه المعتاد في الساعة صباحاً. تحسست الجانب الآخر من السرير؛ كان بارداً. لقد استيقظ مازن قبلها وغادر الغرفة. هذه العادة الجديدة بدأت منذ بضعة أشهر فقط؛ في السابق، كان يصبر على أن يوقظها بلمسة على كتفها أو همسة صباحية، لكنه الآن يفضل أن يسرق ساعة من الصباح لنفسه.

نهضت وسحبت قدميها بتكاسل نحو المطبخ. وجدته هناك، يقف أمام النافذة ممسكاً هاتفه، يقرأ أخباراً أو رسائل عمل، بينما فنجان قهوته يبرد على الطاولة بجانبه.

• "صباح الخير." قالتها بصوت لا يزال يحمل آثار النوم.

لم يلتفت إليها، بل اكتفى بإيماءة خفيفة وتمتمة سريعة:

• "صباح النور.. القهوة جاهزة لو حابة."

سكنت لنفسها فنجاناً وجلست على الطاولة. أرادت أن تخبره عن الحلم الغريب الذي رآته، أو تسأله عن خطط يومه، لكن انشغاله بالشاشة وضع حاجزاً زجاجياً غير مرئي بينهما. شعرت أن كلماتها ستكون مجرد "ضوضاء" تقطع عليه تركيزه، فأثرت الصمت.

هذا هو التغيير الذي كانت تخشاه. لم تكن المشكلة في غياب الحب، فالحب موجود، لكن "اللهفة" هي التي بدأت تتآكل. تحولت صباحاتهم من طقوس مقدسة للمشاركة إلى روتين ميكانيكي؛ كل طرف يؤدي دوره ببراعة، لكن بلا روح.

ارتدى مازن ملابسه بسرعة، وقف أمام المرآة يعدل ياقة قميصه، نظرت إليه هناء من انعكاس المرآة.

• "هتأخر النهاردة؟" سألته.

• "مش عارف، احتمال.. عندي اجتماعات كثير. مستنيش الغدا."

طبع قبلة سريعة، خاطفة، على جبينها، قبلة تشبه "ختم الحضور والانصراف" أكثر مما تشبه القبلات، ثم غادر. سمعت صوت الباب يغلق خلفه، ومع كل "تكة" للمفتاح، كانت تشعر بمسافة تزيد.

في منتصف اليوم، أمسكت هناء هاتفها. فتحت محادثتها مع مازن على "واتساب". مررت الشاشة للأعلى، تعود لرسائل عامين مضوا. كانت المحادثة عبارة عن سيل لا يتوقف من التفاصيل: نكات، صور عشوائية من الشارع، مقاطع صوتية طويلة، وكلمات غزل مفاجئة في وسط النهار.

ثم نظرت إلى رسائل الشهر الحالي:

• "هتأخر."

• "محتاج حاجة وأنا جاي؟"

• "أوكي."

• "دفعتي فاتورة النت؟"

تحولت لغتهم الخاصة إلى "برقيات". مسحت بإبهامها على الشاشة، وكتبت: "وحشتني.. اليوم ثقيل من غيرك".
ظلت تنظر للكلمات لدقيقة كاملة، ثم مسحتها واستبدلتها بـ: "ماتنشاش تجيب عيش وأنت راجع."
أرسلت الرسالة. ظهر علامتا "صح" الزرقاء فوراً. قرأها.
كتب: "حاضر."

وضعت الهاتف جانباً وتنهدت. متى أصبحوا عمليين لهذا الحد؟ متى استبدلوا المشاعر بالمهام المنزلية؟
عاد المساء، وعاد مازن.

كانت غرفة المعيشة مضاعة بنور التلفاز فقط. جلسا بجوار بعضهما على الأريكة، المسافة المادية بينهما لا تتعدى
سنتيمترات، لكن المسافة الذهنية كانت أميالاً.

كان مازن يشاهد فيلماً وثائقياً، وعيناه مثبتتان على الشاشة بجمود. حاولت هناء كسر الجليد.

"النهاردة في الشغل حصل موقف ضايقتني أوي.. بدأت حديثها وهي تأمل أن يلتفت إليها، أن يضغط زر
"الإيقاف المؤقت" ويمنحها كل انتباهه كما كان يفعل.

لكنه لم يرفع عينيه عن الشاشة، وقال بنبرة آلية:

"معلش يا حبيبتي، الشغل كله قرف.. ما تخدوش على أعصابك."

كان رداً معلباً، صالحاً لأي مشكلة ولأي وقت، رداً يهدف لإنهاء النقاش لا للمشاركة فيه. ابتلعت هناء بقية الكلام.
كان لديها تفاصيل كثيرة، كانت تريد أن تشكو له من زميلتها، ومن المدير، ومن شعورها بالإرهاق، لكنها أدركت
أنه "موجود" بجسده فقط. عقله في مكان آخر، مكان لم يعد يدعوها إليه.

"أنا هدخل أنام، تصبح على خير." قالتها بجمود.

"وأنتي من أهله." رد دون أن يلتفت.

دخلت الغرفة، تمددت على السرير وأعطت ظهرها للباب. بعد ساعة، شعرت به ينسل إلى الجوار. استلقى
وأعطاها ظهره هو الآخر.

في الظلام، وعيونهم مفتوحة، كان كل واحد منهما يفكر في الآخر.

مازن يفكر: أنا مرهق، أحاول تأمين مستقبلنا، لماذا أشعر أنها تلومني بصمتها؟

وهنا تفكر: أنا بجانبه، ولكني أشعر بوحدة قاتلة.

كان الصمت في الغرفة يعلو صوته فوق صوت أنفاسهم. لم يكن صمت الراحة، بل كان صمت الكلمات التي تخاف
أن تخرج فتحدث شراً لا يمكن إصلاحه. إنه الصمت الذي يسبق العاصفة، أو ربما.. هو العاصفة نفسها، لكنها
عاصفة بلا صوت، تهدم البيوت من الداخل ببطء شديد.

الفصل الثالث: تراكمات صغيرة

لم تكن المشكلة أبداً في جبل الجليد الظاهر فوق الماء، بل في الكتلة الضخمة المختبئة تحته. في العلاقات، لا يموت الحب بطلقة مسدس مفاجئة، بل يموت مسموماً بجرعات صغيرة ومتكررة من الخذلان اليومي.

كان يوم الجمعة، يومهما المقدس. الاتفاق الضمني بينهما منذ سنوات أن يوم الجمعة هو "يومنا"؛ لا عمل، لا أصدقاء، لا زيارات عائلية إلا للضرورة القصوى.

وقفت هناك في المطبخ منذ الصباح، تحضر "المسقة" التي يحبها مازن، وتغني مع الراديو. كانت تحاول طرد أشباح الصمت التي سكنت المنزل في الأيام الماضية. رتبت السفرة بعناية، ووضعت زهرتين في منتصف الطاولة. تفاصيل صغيرة كانت تعتقد أنها كفيلة بإصلاح المزاج العام.

في تمام الثانية ظهراً، خرج مازن من الغرفة وهو يرتدي ملابس الخروج، ورائحة عطره تسبقه.

تجمدت هناك ومغرفة الطعام في يدها.

"أنت خارج؟" سألته بصوت حاولت أن تجعله عادياً.

انشغل مازن بربط ساعته وهو يجيب دون اكرتات:

"آه، معزز وحسام كلموني، هننزل نقعد شوية على القهوة ونتفرج على الماتش."

شعرت هناك بوخزة حادة في صدرها. لم تكن المشكلة في خروجه، بل في "بديهية" تصرفه. لقد ألغى وجودها وخطتها بقرار لحظي دون حتى أن يستشيرها أو يعتذر.

"بس النهاردة الجمعة يا مازن.. وأنا عملت الغدا."

توقف مازن عن الحركة ونظر إليها بنفاد صبر، تلك النظرة التي بدأت تظهر كثيراً مؤخراً:

"يا هناك مش لازم نكد، الشباب كلموني ومحرجتش أقول لأ. هتغدى معاهم بره. كلي أنتي أو شيليلي منابي للعشا.. مش قصة يعني."

"مش قصة".

هذه الجملة كانت تتردد في أذنها كثيراً. لم يكن يرى أن نسيانه لدفع فاتورة الكهرباء حتى انقطعت عنهم ليلاً "قصة". لم ير أن سخريته من طريقة لبسها أمام أهله الأسبوع الماضي كانت "قصة". لم ير أن انشغاله بالهاتف وهي تحدثه عن مخاوفها في العمل "قصة".

بالنسبة لمازن، كانت هذه "تفاهات" تتجاوزها الحياة.

وبالنسبة لهنا، كانت هذه "تراكمات". كل موقف كان عبارة عن حجر صغير يوضع فوق جدار يرتفع ببطء بينهما.

في المساء، عاد مازن مبتهجاً. فوز فريقه وضحكات الأصدقاء حسنت مزاجه. وجد هناك تجلس في الصالة تقرأ كتاباً، والسفرة فارغة ونظيفة، وكأن شيئاً لم يحدث.

"مساء الخير يا ست الكل." قالها بمرح مصطنع وهو يقترب ليجلس بجوارها.

أغلقت الكتاب بهدوء ونظرت إليه.

"انيسطت؟"

• "جداً.. كان ناقصك والله."

كانت كذبة بيضاء، لكنها في هذا التوقيت بدت سوداء قاتمة.

• "مازن، أنا مش عايزة أتخاتق. بس أنا بحس إن أولوياتك اتغيرت. أنا بقيت في ديل القائمة."

تغير وجه مازن، وظهر التملل في ملامحه:

• "هو احنا هنبدأ أسطوانة كل يوم؟ أنا بشتغل وبطحن نفسي طول الأسبوع عشان مين؟ مش عشان بيتنا؟ من حقي أفصل ساعتين في الأسبوع."

• "تفصل مني؟" قاطعته بحدة. "هو أنا الشغل؟ أنا الحمل اللي عايز تهرب منه؟"

وقف مازن بعصبية وبدأ يتحرك في الغرفة:

• "انتني بتفصلي الكلام على مزاجك ليه؟ أنتي بقيتي حساسة زيادة عن اللزوم، وبتقيلي على الواحدة. بقيت أدخل البيت حاسس إنني داخل امتحان، خايف أقول كلمة تتفهم غلط، خايف أعمل تصرف بسيط تقليبته دراما."

صمتت هناء. هل هي فعلاً "تكديّة" كما يلح؟ هل مطالبته بالاهتمام والتقدير أصبحت "دراما"؟

استرجعت شريط ذكريات الشهور الماضية.

تذكرت المرة التي طلبت منه أن يشاركها في اختيار ألوان دهان الغرفة، فقال لها: "اعلمي اللي عايزاه، مش فارقة."

تذكرت يوم مرضت، واكتفى بأن سأل عنها بالهاتف ولم يرجع من العمل مبكراً ليطمئن عليها.

تذكرت كيف أصبح ينام في الصالة أمام التلفزيون هرباً من حديث ما قبل النوم.

قالت بصوت مخنوق:

• "أنا مش بقلقك على الواحدة يا مازن. أنا بس بحاول ألقى مكاني في حياتك، لأنني حاسة إنه بيصغر كل يوم."

زفر مازن بضيق، وشعر أنه محاصر. هو يحبها، بالتأكيد يحبها، لكنه يشعر بالاختناق. يشعر أن الحب تحول إلى "واجبات" ثقيلة. يريد العودة لمازن القديم، الحر، المنطلق، ويرى في عيني هناء دائماً نظرة لوم تشعره بالتقصير، وهذا الشعور بالذنب يجعله يهرب أكثر. دائرة مفرغة لا تنتهي.

• "تصبحي على خير يا هناء."

قالها لينهي النقاش قبل أن يتحول لشجار صريح. اتجه لغرفة النوم، وتركها وحيدة مع أفكارها.

في تلك الليلة، أضافت هناء حجراً جديداً للجدار: "إنه لا يسمعي."

وفي الغرفة المجاورة، أضاف مازن حجراً من جانبه: "إنها لا تفهمني."

التراكومات الصغيرة كانت تنهش في أساس العلاقة، مثل النمل الأبيض الذي يأكل الخشب من الداخل، يظل المظهر الخارجي سليماً وصلباً، حتى تأتي ريح خفيفة.. فينهار كل شيء فجأة.

الفصل الرابع: الغريب الذي أحبه

يُقال إنك لا تعرف الشخص حقاً إلا في السفر، أو في الخصام. لكن هناء اكتشفت أنك قد تكتشف جهلك بالشخص في أكثر الأوقات هدوءاً، ووسط ضحكات الأصدقاء وأضواء المطاعم الخافتة.

كانت عزومة عشاء في منزل أحد أصدقائهم المشتركين. الجو مليء بالدفع، روانح الطعام الشهية تملأ المكان، وأصوات الضحك تتعالى. جلس مازن في صدر المجلس، متألقاً كعادته، يجذب الانتباه بطريقته السلسة في السرد وروحته المرحة التي افتقدتها هي في المنزل منذ شهور.

كانت هناء تجلس في المقابل، تراقبه. تراقبه وكأنها تشاهد فيلماً لممثل تحبه.

سأله أحد الأصدقاء:

"إيه يا مازن، ناوي على إيه في موضوع الشغل؟ سمعت إن الشركة بتفتح فرع جديد في دبي."

توقعت هناء الإجابة المعتادة. مازن يكره الغربية، ودائماً ما كانا يتفقان أن حياتهم هنا، وسط أهلهم وذكرياتهم. كانت تنتظر أن يقول جملته الشهيرة: "يا عم الغربية كربة، خلينا وسط حبابينا."

لكن مازن اعتدل في جلسته، ولمعت عيناه ببريق غريب وقال بحماس:

"والله بفكر جدياً في الموضوع. الفرصة ممتازة، ومحتاج تغيير جو. بقالي فترة بدرس العرض وشايف إنها خطوة ممكن تنقلني في حنة ثانية خالص."

سقطت الشوكة من يد هناء، محدثة رنيناً خافتاً ضاع وسط صخب الحديث.

يدرس العرض؟ منذ متى؟

لقد كانت تعيش معه، تشاركه السرير والوسادة، وتسمع أنفاسه كل ليلة، ولم تسمع كلمة واحدة عن دبي أو السفر أو دراسة أي عروض. كيف يشارك هذه المعلومات المصيرية مع أصدقاء عابرين بينما هي -شريكته- تسمع الخبر مثلها مثل الغرباء؟

نظرت إليه بتمعن. كان يضحك، ويشرح مميزات النقلة الجديدة.

هل هذا هو مازن؟

لاحظت أنه يرتدي قميصاً لم تشتريه له، ولم تره من قبل. متى اشتراه؟ ومع من؟

لاحظت أنه يستخدم مصطلحات جديدة في كلامه لم تكن في قاموسه.

لاحظت أنه يشرب "الإسبريسو" بدون سكر، وهو الذي كان لا يطيق مرارة القهوة.

شعرت ببرودة تسري في عظامها. الرجل الذي يجلس أمامها يشبه مازن، صوته كصوت مازن، ضحكته كضحكة مازن، لكنه من الداخل شخص آخر. شخص لديه أحلام وخطط وأسرار لا تعرف عنها شيئاً.

في طريق العودة، كان الصمت في السيارة ثقيلًا لدرجة الاختناق. كان مازن يدندن مع الأغنية في المذياع، منتشياً بالأمسية اللطيفة، غير مدرك للعاصفة التي تدور في المقعد المجاور.

• "دبي؟"

قالتها هناء فجأة، بصوت هادئ جداً، هدوء ما قبل الانفجار.

انخفض صوت الدندنة، ونظر إليها مازن بطرف عينه:

"آه.. فكرة مطروحة. لسه مفيش حاجة رسمي."

"أنت بتفكر في السفر بقالك فترة، وبتقول للناس، وأنا معرفش؟"

زفر مازن بضيق، وكأنه كان يتوقع هذا النكد:

"هناء، الموضوع مجرد فكرة. مكنتش عايز أشغلك بحاجة لسه مش أكيدة. وبعدين الكلام جاب بعضه في القعدة."

"لا يا مازن." التفتت إليه بكامل جسدها رغم ضيق المساحة. "الموضوع مش مجرد فكرة. أنت اتكلمت كأنك مخطط. أنت اتغيرت.. في حاجات كتير فيك اتغيرت وأنا آخر من يعلم. قميصك الجديد، قهوتك المرة، أحلامك بالسفر.. أنا بقيت بحس إنني عايشة مع واحد غريب."

ضغط مازن على الفرامل بقوة عند الإشارة الحمراء، والتفتت إليها بملامح جامدة:

"عارفة ليه مش بحكيلك؟ عشان رد فعلك ده. عشان كل حاجة بتتحول لتحقيق. أنا اتغيرت؟ أيوه اتغيرت، كلنا بنتغير. أنتي بس اللي واقفة مكانك، وعايزاني أفضل نسخة من مازن بتاع سنة أولى جامعة."

"أنا مش عايزاك تفضل زي ما أنت، أنا عايزاك تشاركني في تغييرك!" صرخت بها وصوتها يرتجف.
"أنا مراتك! المفروض أكون أول حد يعرف، مش أسمع أخبار جوزي من الناس!"

صمت مازن. لم يكن لديه رد، أو ربما كان لديه منات الردود لكنه أثر الاحتفاظ بها لنفسه. أشاح بوجهه ونظر للطريق. الإشارة أصبحت خضراء، فانطلق بالسيارة.

عادت هناء لتتنظر من النافذة إلى شوارع المدينة المظلمة. كانت الدموع تتجمع في عينيها لكنها أبت أن تسقطها أمامه.

أقسى أنواع الوحدة ليست أن تكون وحيداً، بل أن تكون مع شخص تحبه، وتنظر إليه، ولا تجد فيه الملامح التي عشقتها.

كان مازن يقود السيارة بجوارها، لكنه في الحقيقة كان بعيداً جداً، في عالم آخر، وفي خطط أخرى، لم يعد اسمها مكتوباً فيها بالخط العريض كما كان.

لقد أصبح "غريباً". غريب تحبه وتعرف عنوانه ورقم هاتفه، لكنها أضاعت مفتاح قلبه وعقله.

الفصل الخامس: القشة التي قصمت

يقولون إن المواقف الصعبة هي "الغريبال" الذي يصفي العلاقات، يوقع الزائف ويبقي الحقيقي. كانت هناك تومن بهذه المقولة، لكنها لم تكن تتوقع أن الغريبال سيسقط منه أهم شخص في حياتها.

كان يوماً ممطراً بغزارة، شتاء القاهرة الذي يقلب الشوارع إلى برك من الطين والزحام الخائق. كانت هناك تقود سيارتها عائدة من العمل، رأسها يضج بأفكار عن برود مازن في الأيام الأخيرة، وعن شعور الغربة الذي بات يلزمها في بيتها.

فجأة، وبسبب توقف مفاجئ للحافلة أمامها، ضغطت على المكابح بقوة، لكن الأرض الزلقة خذلتها. انزلقت السيارة واصطدمت بعنف بمؤخرة الحافلة. صوت الارتطام، الزجاج المتناثر، والوسادة الهوائية التي انفتحت في وجهها.. كل شيء حدث في أجزاء من الثانية.

جلست هناك في مكانها لثوانٍ، تحاول استيعاب ما حدث. كانت ترتجف، ليس من البرد، بل من الصدمة. تحسست وجهها، تفقدت أطرافها. هي بخير، جسدياً على الأقل. لكن الرعب كان يتملكها. السيارات تطلق أبواقها، وسائق الحافلة نزل يصرخ ويلوح بيديه.

بيد مرتعشة، سحبت هاتفها. الرقم الأول والأخير في قائمة الطوارئ: "مازن".

كانت بحاجة لصوته. بحاجة لجملة: "أنا جاي حالياً، متخافيش".

رن الهاتف مرة.. مرتين.. ثلاث.

"الو.. أيوه يا هناك.."

جاء صوته سريعاً، متوتراً، وخلفه أصوات ضوضاء مكتيبة.

"مازن.. " قالتها بصوت متحشرج والدموع تخنقها. "أنا عملت حادثه.."

صمت للحظة، ثم جاء الرد الذي لم تتوقعه. لم يصرخ فرحاً، لم يسأل "أنت كويسة؟" بلهفة العاشق أو حتى بمسؤولية الزوج.

قال بنبرة محملة بالضيق، وكأنها طفلة كسرت مزهرية:

"حادثه إيه؟ وفين؟ والعربية جرالها إيه؟ أنتي كويسة يعني ولا في مستشفى؟"

تجمدت الدموع في عينيها. ترتيب أسنلته كان كفيلاً بقتل شيء ما بداخلها. سأل عن الحادثه، ثم المكان، ثم العربية، وأخيراً.. سأل عنها كتحصيل حاصل.

"أنا.. أنا كويسة.. قالتها بجمود مفاجئ.."

"طيب الحمد لله بصي، أنا في اجتماع مهم جداً مع الوفد الأجنبي ومش هعرف أخرج دلوقتي خالص. اتصلي بشركة التأمين، ومعاك رقم الونش اللي اتعاملنا معاه قبل كده؟ ولا أبعت هولك؟"

كان سائق الحافلة يطرق زجاج نافذتها بعصبية. المطر ينهمر. وهي وحدها.

"يعني مش هتيجي؟" سألت، وهي تعرف الإجابة، لكنها أرادت أن تسمعها لتصدق.

تنهد مازن بقله حيلة:

"يا حبيبتي بقولك اجتماع مصيري، لو مشيت هخسر كثير. أنتي سليمة والعربية تتصلح. خليكي قوية وتصرفي، أنتي بتصرفي تتصرفي. لو حصلت مشكلة كبيرة كلميني تاني."

أغلقت الخط.

نظرت للهاتف المظلم في يدها. "خليكي قوية وتصرفي".

لطالما كانت تتصرف. لطالما كانت القوية. لكنها في هذه اللحظة، وسط المطر وصراخ الناس، لم تكن تريد أن تكون قوية. كانت تريد أن تكون "مسؤولة منه".

نزلت من السيارة. وجهت حديثها لسانق الحافلة بهدوء مخيف، أخرجت رخصتها، اتصلت بشركة التأمين، ووقفت تحت المطر تنتظر المعاينة. رأت سيدة أخرى في سيارة مجاورة توقفت لتطمئن عليها، ورأت زوج تلك السيدة يركض نحوها بمظلة ليحميها من المطر رغم أنها لم تكن طرفاً في الحادث.

راقبت المشهد بقلب ممزق. الغرياء يمنحون الدفء، وشريك حياتها يمنحها "أرقام هواتف للطوارئ".

عادت للمنزل متأخرة، بملابس مبللة وروح مظفأة.

كان مازن قد عاد قبلها بقليل. ركض نحوها عندما دخلت:

"حمد الله على السلامة! قلقتيني عليكي.. ها عملتي إيه؟ والعربية راحت التوكيل؟"

نظرت إليه. كان يبدو قلقاً فعلاً الآن، لكنه "قلق ما بعد الكارثة". قلق من يريد الاطمئنان ليرتاح ضميره، لا قلق من يريد المشاركة.

"أنا تعبانة وعازية أنام." قالتها بصوت خاو.

"يا بنتي طمئيني طيب.. حقك عليا إني مجتش، بس والله كان غصب عني، الشغل كان.."

رفعت يدها لتقاطعه. لم تعد تملك طاقة للنقاش، أو للعتاب، أو حتى للصراخ.

"مازن.. مش فارقة. بجد مش فارقة. أنا اتصرفت. زي ما أنت قولت.. أنا بعرف أتصرف." .

دخلت الحمام، ووقفت تحت الماء الساخن. اختلطت دموعها بالماء.

اليوم، لم تتحطم مقدمة سيارتها فقط. اليوم، تحطمت الفكرة التي عاشت عليها لخمس سنوات. فكرة أنه "السند".

اكتشفت أنها في هذه العلاقة تقف وحدها في العراء، وأن وجوده بجانبها مجرد "ديكور" اجتماعي لا يحمي من برد، ولا يظله من مطر.

هذه لم تكن مجرد حادثة سير.

هذه كانت القشة.

تلك اللحظة الصغيرة التي تدرك فيها المرأة أنها لم تعد بحاجة للرجل الذي تحبه، لأن خذلانه لها في وقت حاجتها، علمها كيف تستغني عنه.

خرجت من الحمام، ارتدت بيجامة دافئة، وتمددت في الفراش وأعطته ظهرها كالعادة. لكن هذه المرة، كانت تعلم يقيناً أن هذا الظهر لن يلتفت إليه مرة أخرى.

في تلك الليلة، نامت هناء وهي عازية في قلبها، رغم الخاتم الذي لا يزال يلمع في إصبعها.

الفصل السادس: شرارة الاشتعال

مرت ثلاثة أيام على الحادث. ثلاثة أيام من الهدوء المريب. كانت "هناء" تتصرف بروبوتية تامة؛ تذهب لعملها، تعود، تأكل، وتنام. لم تعاتب، لم تصرخ، ولم تفتح الموضوع مرة أخرى.

فسر "مازن" هذا الصمت على طريقته الخاصة: لقد تفهمت الموقف، وهي الآن هادئة. كان يعتقد بساداجة أن العاصفة مرت بسلام، ولم يدرك أن ما يراه هو هدوء العين التي في قلب الإعصار.

كان مساء الخميس، وكانوا مدعوين لعشاء عائلي في بيت والد "هناء". حاول مازن أن يكون لطيفاً بشكل مبالغ فيه طوال الطريق، يشغل الموسيقى، يعلق على الزحام بمرح، ويحاول استدراجها للكلام.

- "باباكي وحشني والله، بقالي كتير مقعدتش معاه." قالها وهو ينظر إليها مبتسماً.

ردت باقتضاب وهي تنظر للطريق:

- "أبوة."

وصلوا إلى بيت العائلة. بمجرد دخولهم، تحول مازن إلى شخص آخر. ارتدى قناع "الزوج المثالي" ببراعة يحسد عليها. صافح والدها بحرارة، قبل يد والدتها، ومازح إخوتها.

جلسوا جميعاً حول مائدة العشاء. كانت الضحكات تتعالى، ومازن يسيطر على الحديث بحكاياته عن العمل وعن خطته المستقبلية "المبهمة".

فجأة، سألت والدته هناء بلهفة:

- "صحيح يا هناء، عملتي إيه في موضوع العربية؟ والسمكري قالك هتخلص امتي؟"

قبل أن تفتح هناء فمها، تدخل مازن سريعاً، واضعاً يده على كتف هناء ومربتاً عليها بفخر مصطنع:

- "لا متقلقيش يا طنط، هناء دي بمية راجل. الحادثة حصلت وأنا كنت محبوس في اجتماع مع وفد أجنبي ومقدرتش أتحرك، بس هي ماشاء الله عليها، خلصت الإجراءات واتعاملت مع الونش وكله تمام. أنا فخور بيها جداً."

تجمدت اللقمة في حلق هناء.

نظرت إليه بذهول. كيف يجرو؟

كيف يجرو أن يحول قصة خذلانه لها إلى قصة عن "فخره بقوتها"؟ كيف يلون الحقيقة ليظهر هو بمظهر الزوج الداعم الذي يثق في قدرات زوجته، بينما الحقيقة أنه تركها وحيدة تحت المطر لأنه فضل عمله عليها؟

قالت والدتها بإعجاب:

- "ربنا يخليكم لبعض يا ابني، الراجل ملوش غير مراته تسنده، والست ملهاش غير جوزها يطمنها."

شعرت هناء برغبة عارمة في الصراخ، في قلب الطاولة، في قول الحقيقة العارية أمام الجميع: "ابنكم المفضل تركني أواجه الموت والبلطجية وحده ولم يكلف نفسه سوى مكالمة هاتفية!"

لكنها صمتت. ابتلعت الإهانة مع الطعام المالح. لم تكن تريد كسر قلب والدتها أو إحراج نفسها أمام العائلة. لكن نظرتها لمازن تغيرت في تلك اللحظة من "عتاب" إلى "احتقار".

انتهت السهرة، وركبا السيارة للعودة.

بمجرد أن أغلق مازن باب السيارة وتحرك، تلاشت ابتسامته وحل محلها الضيق:

• "ممكن أفهم كنتي مكشرة ليه طول القعدة؟"

نظرت إليه هناء ببرود:

• "أنا مكنتش مكشرة. أنا كنت ساكتة."

• "وسكوتك ده كان مسمع المكان كله نكد!" ضرب بيده على المقود بعصبية. "أهلك كانوا بيسألوني مالها كل شوية. أحرجتيني قدامهم. أنا بحاول أطف الجو وبضحك وبهزر، وأنتي قاعدة كأنك في عزا."

هنا.. قُدحت الشرارة.

لم تعد هناء قادرة على السيطرة على البركان الخامد بداخلها. التفتت إليه، وعيناها تلمعان بغضب لم يره فيها من قبل.

• "بتحاول تُلطف الجو؟ ولا بتحاول تداري خيبتك؟" قالتها بصوت هادئ لكنه حاد كالشفرة.

ضغط مازن على الفرامل فجأة وصف السيارة على جانب الطريق المظلم. التفت إليها بصدمة:

• "أنتي بنقولي إيه؟ احترمي نفسك."

• "أحترم نفسي؟" ضحكت بسخرية مريرة. "أنت كنت قاعد بتتباهى بيا قدامهم وتقول (هناء بمية راجل).. عارف ليه أنا بمية راجل يا مازن؟ عشان الراجل اللي في حياتي قرر يختفي وقت ما احتاجته. عشان اضطريت أكون الراجل والست في نفس الوقت!"

• "تاني؟ هنتفتح الموضوع ده تاني؟" صرخ مازن في وجهها. "مش قفلناه وقولتلك غصب عني؟ أنتي ليه مصرة تعيشي دور الضحية؟"

• "عشان أنا ضحية فعلاً!" صرخت لأول مرة بصوت هز أركان السيارة. "ضحية إهمالك، وأنايتك، وتمثيلك الاجتماعي المقرف. أنت مكنتش بتشكر فيا عشان فخور بيا، أنت كنت بتشكر فيا عشان تبرر لنفسك وليهم إنك سببتي لوحدي!"

نظر إليها مازن بعيون متسعة. لم يرها هكذا من قبل. كانت دائماً المطيعة، الهادئة، العاقلة. من هذه المرأة التي تصرخ في وجهه وتواجهه بحقيقته؟

• "أنتي اتجننتي.. تمتم مازن. "أنتي أكيد اتجننتي."

• "لا يا مازن.. تراجعت بظهرها للخلف، وزفرت بقوة وكأنها تلقي حملاً ثقیلاً عن صدرها. "أنا فوقت. أنا عقلت."

أدار مازن محرك السيارة بعنف، وانطلق بسرعة جنونية نحو المنزل. لم ينطقا بكلمة واحدة طوال بقية الطريق.

كان الصمت هذه المرة ليس صمت البرود، بل صمت التحفز. كلا الطرفين كان يشحذ أسلحته. كلا الطرفين كان يراجع ملفاته القديمة والجديدة.

وصلوا إلى باب العمارة. صعدا السلالم وكأنهم غرباء يركبون مصعداً واحداً صدفةً.

فتح مازن باب الشقة، ودخل، ودخلت خلفه.

أغلق الباب بقوة.

تلك "الخبطة" القوية للباب كانت إشارة البدء.

لم يذهب أحد للنوم هذه المرة.

وقف مازن في منتصف الصالة، ووقفت هناء أمامه.

نظراتهم تلاققت.. وهذه المرة، لن يتراجع أحد.

لقد حان وقت "المناظرة الأخيرة".

الفصل السابع: المناظرة الأخيرة

لم يخلع أحدهما حذاءه، ولم يغير ملابسه. وفقاً في منتصف غرفة المعيشة، تحت ضوء النجفة الأصفر الباهت، مثل ملاكمين في الحلبة ينتظران جرس البداية.

بدأ مازن، صوته كان هادناً بشكل مخيف، هدوء ما قبل العاصفة:

- "ممكّن أفهم إيه المسرحية الهزلية اللي عملتيها في العربية دي؟ عايزة تثبتي إيه؟ إني وحش؟ إني مقصر؟"

ألقت هناء حقيبتها على الأريكة بإهمال، ونظرت في عينيه مباشرة:

- "أنا مبحاولش أثبت حاجة. الحقائق واضحة. أنت اللي بتمثل دور الضحية، وأنت الجلاد."

ضحك مازن بسخرية مريرة، وبدأ يتحرك في الغرفة جينة وذهاباً:

- "أنا جلاد؟ أنا اللي طالع عيني في الشغل ليل نهار عشان مين؟ عشان مين مستحمل ضغط المديرين وسخافة العملاء؟ مش عشان نعيش في مستوى كويس؟ مش عشان لما تطلبي حاجة تلاقياها؟ وفي الآخر، بدل ما أسمع كلمة تقدير، أسمع نعمة (أنت مش موجود، أنت متغير، أنت مهمل).."

توقف أمامها وصرخ:

- "أنا بني آدم! طاقتي بتخلص! مش مطلوب مني أكون سوبر مان طول الوقت!"

اقتربت منه هناء خطوة، ولم تتراجع:

- "ومش مطلوب منك تكون سوبر مان.. مطلوب منك تكون (جوزي)! أنت فاكر الجواز إيه يا مازن؟ الجواز مشاركة. أنت بتشتغل عشان الفلوس، تمام، كتر خيرك. بس أنا بتشتغل عشان ATM ماكينة البيت ده يفضل فيه روح. أنا اللي بفتكر أعياد الميلاد، أنا اللي بود أهلك، أنا اللي بصلح وراك اللي بتكسره في علاقاتنا."

أخذت نفساً عميقاً وأكملت، وصوتها بدأ يرتجف:

- "أنت بتعايرني بشغلك؟ طب ما أنا كمان بتشتغل! وبرجع تعبانة، وبطبخ، وبهتم بتفاصيلك. الفرق بيني وبينك إن أنا لسه شايفاك أولويتي، وأنت شايفني (تحصيل حاصل). أنت بقيت بتعاملني كأني قطعة أثاث في البيت، مضمونة، موجودة، ومالهش صوت."

- "عشان أنتي نكدية!" قاطعها مازن بحدة. "أيوه نكدية. مابيعجبكيش العجب. بقيت أهرب من البيت عشان مسمعش صوتك وأنتي بتشتكي. بقيت أفضل قعدة القهوة وشغل لوقت متأخر عشان مرجعش أشوف وشك المقلوب."

نزلت الكلمة كالصاعقة على هناء.

تراجعت للخلف وكأنها تلقت صفعاً.

- "بتهرب مني؟" همست بها. "لدرجة دي؟"

- "وأكثر يا هناء." استمر مازن في الاندفاع، وكأنه فتح سدًا من الكلام المحبوس لسنوات. "أنا مخنوق. بقالي شهوور مخنوق. حاسس إنني مسجون في القالب اللي رسمتيهولي. لازم أكون الرومانسي، والناجح، والحنين، والرائق. أنا اتغيرت، ومش قادر أكون النسخة اللي أنتي عايزاها دي." ساد صمت ثقيل لعدة ثوان. كان صوت أنفاسهم المسموعة هو الشيء الوحيد في الغرفة.

ثم قالت هناء بصوت بارد جداً:

- "بما إنك فتحت السيرة.. موضوع دبي. أنت وافقت عليه صح؟"

نظر إليها مازن بتردد، ثم قرر أن ينهي كل الأسرار الليلية:

- "أيوه. وافقت. وهسافر الشهر الجاي."
- "هنسافر؟" سألت، وهي تعرف الإجابة.

أشاح مازن بوجهه:

- "أنا محتاج أكون لوحدي فترة يا هناء. محتاج أعيد حساباتي. محتاج أتتفك عن الضغط ده. السفرية دي فرصة ليا.. ولينا، عشان نعرف احنا عايزين إيه."
- "لا.. قاطعته بابتسامة منكسرة. "دي فرصة ليك أنت بس. أنت قررت، وخططت، وهتنفذ. أنا فين في المعادلة دي؟"
- "أنتي مراتي، وهتفضلي مراتي، بس..."
- "بس إيه؟" صرخت هناء. "بس مركونة على الرف لحد ما سيادتك تلاقي نفسك؟ أنا مش لعبة يا مازن! أنا مش استبين!"
- "وأنا مش هقدر أكمل كده!" صرخ مازن في وجهها، منهيًا المناظرة بضربة قاضية. "أنا تعبت من المحاولة. تعبت إنني أحاول أرضيكي وأفضل. احنا بنأذي بعض. وجودنا سوا بقى عبء علينا احنا الاتنين. الحب اللي بينا مات، واحنا عمالين ننفتح في رماد."

توقفت الكلمات في الهواء.

"الحب مات."

قالها. نطقها صراحة.

نظرت هناء حولها في الغرفة. إلى الصور المعلقة، إلى الوسائد التي اختارتها، إلى الزوايا التي شهدت ضحكاتهم القديمة. كل شيء بدا فجأة غريباً، وكأنها في منزل شخص آخر.

هدأت فجأة. اختفى الغضب، وحل محله يقين مؤلم.

نظرت إلى يدها اليسرى. بدأت تخلع الخاتم ببطء. لم يكن الأمر درامياً كما في الأفلام، كان صعباً، لأن الخاتم كان ضيقاً قليلاً، وكأنه يرفض الخروج، لكنها سحبته بقوة حتى جرحت إصبعها.

وضعت على الطاولة الفاصلة بينهما. الطاولة التي شهدت في الفصل الأول هدية الذكرى الخامسة.

- "أنت صح." قالتها بصوت يشبه الهمس. "أحنا بنأذي بعض. وأنا مش هقبل أكون عبء على حد، ولا هقبل أعيش مع راجل ببشوفني سجن."

نظر مازن إلى الخاتم على الطاولة، ثم نظر إليها. كان هناك حزن في عينيه، لكن لم يكن هناك تراجع.

- "هنا.. أنا مش عايز ده ينتهي بكره."

- "هو انتهى خلاص يا مازن."

اتجهت نحو غرفة النوم.

- "أنا هلم هدومي وأروح بيت أهلي الليلة. مش عايزة أشوفك الصبح."

دخلت الغرفة وأغلقت الباب.

بقي مازن واقفاً في مكانه. الخاتم يلمع تحت الضوء. وصوت سحاب حقيبة السفر يأتي من خلف الباب المغلق كصوت تمزيق لسنوات عمره الخمس.

كانت هذه هي المناظرة الأخيرة.

لم يفز فيها أحد.

لقد خسر كلاهما كل شيء.

الفصل الثامن: صباح اليوم التالي

أقصى أنواع الاستيقاظ ليس ذلك الذي يقطعه صوت المنبه المزعج، بل ذلك الذي يحدث في هدوء تام، حين تفتح عينيك لتجد أن العالم لم يتغير، الشمس تشرق في موعدها، والطيور تزقزق، لكن عالمك أنت قد انهار تماماً في الليلة السابقة.

استيقظ مازن في الساعة صباحاً كعادته البيولوجية. لثانية واحدة، مجرد ثانية، كان عقله لا يزال في وضع "ما قبل الكارثة". مد يده بشكل تلقائي نحو الجانب الآخر من السرير، حركة اعتادها لأكثر من ألف وثمانمائة ليلة. كانت أصابعه تبحث عن دفء جسد هناء، عن كنفها، عن شعرها المتناثر على الوسادة.

لكن أصابعه لم تلمس سوى برودة الملاءة القطنية.

تجمدت يده. وفتح عينيه باتساع.

عاد إليه شريط ذكريات الليلة الماضية دفعة واحدة. الصراخ، الحقيبة، الباب الذي أغلق، والخاتم المتروك على الطاولة.

لم يكن حلماً. لقد رحلت.

جلس على حافة السرير، يفرك وجهه بكفيه بقوة محاولاً طرد هذا الثقل الجاثم على صدره. نظر حوله في الغرفة. كانت تبدو كما هي، لكن شيئاً ما كان ناقصاً. زجاجة عطرها لم تعد على التسريحة. فرشاة شعرها اختفت. حتى الوسادة المجاورة بدت منتفخة بشكل غريب لعدم نوم أحد عليها.

نهض وسار في الشقة كالشبح. الصمت كان مرعباً. في العادة، في هذا الوقت، كان سيسمع صوت غلاية المياه، أو صوت هناء وهي تدندن في الحمام، أو حتى صوت الأخبار من التلفاز. لكن اليوم، كان الصوت الوحيد هو صوت خطواته الحافية على السيراميك البارد.

وقف أمام الطاولة في الصالة. الخاتم الفضي ذو الفص الأزرق لا يزال هناك. يلمع ببرود تحت ضوء الشمس المتسلل من النافذة.

أمسكه، قلبه بين أصابعه. كان وزنه خفيفاً جداً، لكنه شعر أنه يحمل جبلاً.

وضع الخاتم في جيبه، ليس رغبة في الاحتفاظ به، بل لإخفائه عن ناظريه. لم يكن مستعداً لمواجهة هذا الدليل المادي على النهاية الآن.

في الجانب الآخر من المدينة، في بيت عائلتها القديم، كانت هناء تحق في السقف.

سريرها القديم، السرير الفردي الضيق الذي نامت عليه طوال سنوات مراهقتها، بدا الآن غريباً وغير مريح. الغرفة بمصقاتها القديمة وكتب الجامعة المرصوفة على الرف، بدت وكأنها متحف لحياة شخص آخر مات منذ زمن.

سمعت صوت والدتها في المطبخ، وصوت حركة الأطباق. أصوات مألوفة من طفولتها، لكنها الآن تشعرها بالغربة.

كيف عادت إلى هنا؟ كيف تقلصت حياتها المستقلة، مملكتها التي بنتها، لتعود مجرد "ابنة" تنام في غرفة الضيوف؟

تذكرت أنها نسيت شاحن هاتفها في بيت مازن. تفصيلة تافهة جداً، لكنها جعلتها تبكي. بكت لأنها أدركت أن حياتها متشابكة معه في ملايين التفاصيل الصغيرة. الشاحن، فرشاة الأسنان، علبة الدواء المشتركة، اشتراك "نتفليكس"، وحتى نوع القهوة الذي لا تشربه إلا معه.

كيف ستفك هذا الاشتباك؟ كيف ستقطع هذه الخيوط الرفيعة التي تربطها به دون أن تنزف؟

طرفت والدتها الباب ودخلت بحذر، تحمل صينية إفطار. كانت ملامح الأم تحمل مزيجاً من الحزن والشفقة، وهي نظرة كرهتها هناء فوراً.

• "صباح الخير يا بنتي.. قولت أجيبك لقمة ترم عضمك."

اعتدلت هناء في جلستها، ومسحت عينيها بسرعة:

• "مليش نفس يا ماما. شكراً."

• "يا بنتي ما ينفعش كده، وشك أصفر ليمونة. كلي وبعدين نتكلم. أبوكي قلقان عليك أوي."

• "مفيش كلام يا ماما." قالتها هناء بجمود. "الموضوع انتهى. أنا هرتاح كام يوم وبعدين هنزل أدور على شقة إيجار قريب من الشغل."

• "شقة إيجار إيه بس! ده بيتك ومطرحك. وبعدين يا عالم، يمكن دي ساعة شيطان والنفوس تهدي."

• "مش تهدي." صرخت هناء فجأة، ثم خفضت صوتها وهي ترتجف. "مش تهدي يا ماما. مازن سافر دبي في دماغه من زمان. مازن سابني قبل ما يسبب البيت امبارح بسنين."

خرجت الأم، تاركة الصينية.

أمسكت هناء هاتفها. الشاشة سوداء. لا رسائل. لا "صباح الخير" المعتادة. ولا حتى رسالة اعتذار.

كان هذا هو الصباح الأول في التقويم الجديد. تقويم "ما بعد مازن".

ارتدى مازن ملبسه للذهاب للعمل. لم يكن لديه طاقة لمواجهة الزملاء، لكن البقاء في المنزل كان يعني الجنون.

قيل أن يخرج، ذهب للمطبخ ليشرّب قهوته. فتح دولاب المطبخ، فوجد العلبة التي تحبها هناء، "الشاي الأخضر بالنعناع"، مرصوفة بجوار قهوته.

مد يده ليرميها في القمامة، ثم توقف.

أغلق الدولاب بقوة.

لم يستطع رميها. ليس حباً، بل عجزاً.

خرج من الشقة، وأغلق الباب. صوت "تكة" المفتاح كان نهائياً وحاسماً.

في هذا الصباح، سار كل منهما في طريقه وحيداً، يحمل داخله جرحاً مفتوحاً، ومدينة كاملة من الذكريات التي يجب هدمها.. طوبة طوبة.

الفصل التاسع: انسحاب الأعراض

يقول علماء النفس إن العقل لا يفرق بين الألم الجسدي الناتج عن كسر في العظام، وبين الألم النفسي الناتج عن الانفصال. كلاهما يرسل نفس إشارات الاستغاثة للجهاز العصبي. لكن مازن وهناء لم يكونا بحاجة لعلماء ليخبروهما بذلك؛ كانا يشعران به في كل خلية.

مر أسبوع. سبعة أيام بدت وكأنها سبع سنوات عجاف.

في الأيام الأولى، كانت "الصدمة" هي المخدر الذي يحميها من الألم. لكن الآن، زال مفعول المخدر، وبدأ "الانسحاب".

كان مازن يجلس في مكتبه، يحدق في شاشة الحاسوب منذ ساعة دون أن يكتب حرفاً واحداً. مؤشر الكتابة يظهر ويختفي أمامه بانتظام مستفز.

اهتز هاتفه على المكتب.

قفز قلبه في صدره قفزة عنيفة. مد يده بلهفة لا إرادية، تلك اللهفة التي تسبق التفكير المنطقي.

رسالة من هناء؟ هل قررت العودة؟ هل تعتذر؟

فتح الشاشة.

"عزيزي العميل، تم إصدار فاتورتك..."

ألقي الهاتف على المكتب بعنف وكأنه جمرة نار.

زفر بضيق، وخلع نظارته ليدلك عينيه. اكتشف في تلك اللحظة أن أصعب ما في الانفصال ليس غياب الشخص، بل غياب "الروتين".

كان عقله مبرمجاً على إرسال رسالة لها في هذا التوقيت: "ماذا ستطبخين اليوم؟" أو "المدير يضايقتني كالعادة".

الآن، يكتب الرسائل في عقله، ثم يدرك أنه لا يوجد مستقبل لها، فيبتلعها. تراكم الكلمات غير المرسله كان يسبب له "عسر هضم" عاطفي.

دخل زميله "حسام" المكتب:

• "مازن، فيم تفكر؟ هيا لننزل لتناول الغداء."

• "ليس لي رغبة يا حسام، اذهب أنت."

• "يا رجل لا تكن هكذا، ما بك منذ يومين؟ هل تشاجرت مع (المدام) أم ماذا؟"

نظر إليه مازن نظرة حادة. كلمة "المدام" التي كانت عادية، أصبحت الآن تلسعه وتذكره بوضعه الجديد.

• "مجرد صداع.. اتركني وحدي أرجوك."

على الجانب الآخر، كانت هناء تخوض معركتها الخاصة مع "الفضول القاتل".

طوال النهار، كانت تقاوم رغبة ملحة في فتح تطبيق المحادثات. كانت يداها ترتعشان وهي تمسك الهاتف.

سأرى فقط متى كان (آخر ظهور) له. لن أرسل شيئاً. مجرد اطمئنان.

بررت لنفسها الضعف، وفتحت المحادثة.

الحالة: "متصل الآن".

تجمدت. قلبها يدق بعنف. مع من يتحدث؟ هل يحكي لأصدقائه؟ هل هو سعيد؟ أم يحدق في محادثتها مثلما تفعل هي؟

ظلت تراقب كلمة "متصل الآن" وكأنها تراقب مؤشرات حيوية لمريض.

فجأة، تحولت الحالة إلى "يكتب الآن...".

شهقت هناء. هل سيكتب لها؟

انتظرت.. ثانية.. دقيقتين..

اختفت عبارة "يكتب الآن". وعادت حالة "متصل الآن".

ثم تحولت إلى "آخر ظهور: منذ دقيقة".

لم يرسل شيئاً.

تراجعت وكتبت ثم مسحت؟ أم كان يكتب لشخص آخر؟

شعرت بغثيان. هذه اللعبة، لعبة المراقبة الصامتة، هي أكثر أنواع التعذيب الذاتي قسوة. ألقت الهاتف في حقيبتها وقررت أن تغرق نفسها في العمل حتى المساء.

في الليل، تشدد أعراض الانسحاب.

الليل هو العدو الأول للوحدة.

كان مازن في شقته، يحاول مشاهدة مباراة كرة قدم، لكنه لم يكن يركز. كانت الشقة واسعة جداً، وباردة جداً.

قام ليعد كوباً من الشاي. فتح الثلاجة، وجد علبة "الزبادي" التي تحبها هناء، وتاريخ صلاحيتها قارب على الانتهاء.

وقف أمام الثلاجة المفتوحة لدقائق، والبرودة تلتفح وجهه.

هل يرميها؟

أم يأكلها؟

شعر أن رميها خيانة، وأكلها اعتراف بالهزيمة. أغلق الثلاجة وتركها مكانها.

عاد لغرفة الجلوس، وأخرج هاتفه.

كتب رسالة: "أنا آسف على الطريقة التي تحدثنا بها. هل يمكننا أن نتقابل؟"

ظل ينظر للرسالة.

ثم تذكر كلامها: "أنت تراني سجنأ".

وتذكر كلامه: "الحب مات".

ضغط زر "المسح" ببطء، حرفاً حرفاً، وكأنه يمسخ وجودها من يومه.

في بيت أهلها، كانت هناء تحاول النوم في السرير الضيق.

كانت تشعر بألم جسدي في صدرها، ثقل جاثم يمنعها من التنفس بعمق.

تقلب يميناً ويساراً. تفتقد رائحة وسادته. تفتقد صوت أنفاسه المنتظمة التي كانت تساعد على النوم.

كانت كمن توقف عن تعاطي المخدر فجأة؛ عرق بارد، أرق، وتفكير قهري لا يتوقف.

همست لنفسها في الظلام:

"سأمر من هذه الأزمة.. غداً سيكون أفضل."

لكنها كانت تعلم أنها كذبة. "غداً" لن يكون أفضل. الانسحاب يأخذ وقتاً. السم لا يخرج من الجسم في ليلة واحدة.

كانت هذه المرحلة هي مرحلة "عض الأصابع". من سيتألم أكثر؟ ومن سيصرخ أولاً؟

وحتى هذه اللحظة، كان كلاهما يعض على جرحه بصمت، رافضاً الاعتراف بأن الحرية التي طالبوا بها.. طعمها مر جداً.

الفصل العاشر: قائمة الممنوعات

لم يكن الانفصال مجرد كلمة قيلت وانتهى الأمر؛ كان نمط حياة جديداً يتطلب "قوانين" صارمة للبقاء على قيد الحياة. أدرك كل من مازن وهناء أنهما كي يتجاوزا هذه المرحلة، يجب عليهما صياغة دستور جديد، دستور أطلق عليه كل منهما في قرارة نفسه: "قائمة الممنوعات".

بدأت القائمة عند هناء بالصور.

جلست على سريرها، والهاتف في يدها، وفتحت "معرض الصور". كان هذا هو الأرشيف الكامل لسنوات شبابها. الآلاف من الصور. صور لإفطار يوم الجمعة، صور عفوية التقطتها لأنفسهما في السيارة، صور وهما يضحكان حتى تدمع أعينهما في حفل زفاف صديقتهما، وصور أخرى التقطتها له وهو نائم دون أن يدري.

كانت كل صورة عبارة عن خنجر ينغرس في ذاكرتها. كيف يمكن لتلك النقاط الملونة على الشاشة أن تحمل كل هذا الوجع؟

وضعت إصبعها على خيار "تحديد الكل".

ارتجفت يدها. هل تمحو تاريخها؟ هل تمسح الدليل الوحيد على أنها كانت يوماً ما سعيدة ومحبوبة؟

لم تستطع الضغط على زر الحذف. لم تملك تلك القسوة بعد.

اختارت حلاً وسطاً؛ "نقل إلى الأرشيف" أو "إخفاء".

بدأت تنقل الصور، صورة تلو الأخرى، من مجلد "المفضلة" إلى مجلد منسي في أعماق ذاكرة الهاتف. مع كل صورة تختفي من أمام عيناها، كانت تشعر أنها تدفن جزءاً حياً منها.

الممنوع الأول: النظر إلى الصور القديمة.

أما عند مازن، فكانت القائمة تتعلق بـ "الجغرافيا".

كان يقود سيارته عائداً من العمل، وعقله يسوقه تلقائياً نحو الطريق المختصر الذي يمر عبر "شارع المعز". فجأة، ضغط على المكابح وانحرف بالمقود بقوة ليدخل في شارع جانبي مزدحم، مفضلاً الوقوف في الزحام لساعة على أن يمر من هناك.

كان ذلك الشارع هو مكانهما المفضل. هناك مقهى صغير في الزاوية، وهناك بائع الكتب القديمة الذي يعرفهما بالاسم. المرور من هناك يعني فتح باب للجحيم.

أخرج هاتفه واستحضر خريطة المدينة في ذهنه. بدأ يضع علامات حمراء وهمية على مناطق كاملة في القاهرة. الزمالك؟ ممنوعة، هذا هو مكان مشيها الليلي.

وسط البلد؟ ممنوعة، دور عرض سينمائي وذكريات لا تنتهي.

مطعم البييتزا في المعادي؟ منطقة محظورة تماماً.

وجد مازن أن مدينته تنقلص. الأماكن التي يمكنه الذهاب إليها دون أن يطارده طيف هناء أصبحت قليلة جداً. أصبح غريباً في مدينته لأن كل ركن فيها يحمل بصمتها.
الممنوع الثاني: الذهاب للأماكن المشتركة.

جاءت الليلة التي قرر فيها الطرفان تنفيذ البند الأصعب في القائمة: "القطيعة الإلكترونية". كانت هناء تراقب حسابه كالعادة، لكنها لاحظت أنه قام بنشر "حالة يومية" مصورة. كانت صورة لكوب قهوة ومكتوب عليها جملة غامضة: "بدايات جديدة".

اشتعلت الغيرة والفضول في قلبها. بدايات جديدة؟ هل نسي بهذه السرعة؟ هل هناك امرأة أخرى؟ هل هو سعيد لرحيلها؟

أدركت أن هذه المراقبة تدمرها. إنها تتجرع السم وتنتظر أن يموت هو.

في نفس التوقيت، كان مازن يرى تعليقاً لهناء عند صديق مشترك، تضحك فيه وتضع وجوهاً مبتسمة. شعر بالاستفزاز. تضحك؟ وأنا هنا أتعذب؟

في لحظة توافق غريبة، ومن مكانين مختلفين، اتخذ الاثنان نفس القرار.

فتح مازن ملف هناء الشخصي.

وفتحت هناء ملف مازن الشخصي.

وقفت أصابعهما على الزر الأحمر.

"إلغاء الصداقة".

أو ربما الأسوأ.. "الحظر".

تردد مازن. الحظر يعني النهاية. يعني أنه لن يراها، ولن تراه. يعني قطع آخر خيط رفيع جداً، خيط الوهم بأن الباب لا يزال موارباً.

قالت هناء لنفسها: "يجب أن أحمي قلبي".

وقال مازن لنفسه: "يجب أن أستعيد كرامتي".

ضغطت هناء.

وضغط مازن.

اختفت الصور. اختفى الاسم. تحولت الصفحة المليئة بالحياة إلى صفحة رمادية فارغة.

"المستخدم غير موجود".

ساد صمت إلكتروني مرعب.

الآن، أصبحا رسمياً غرباء. لا يعلمان عن بعضهما شيئاً. لو مات أحدهما الليلة، لن يعرف الآخر إلا بالصدفة عن طريق الغرباء.

أغلق مازن هاتفه وألقاه بجانبه، وأحس ببرودة تسري في أطرافه.

أغلقت هناء هاتفها ودفنت وجهها في الوسادة وبكت. بكت لأنها هي من ضغطت الزر، وهي من قطعت الحبل، لكنها شعرت وكأنها قطعت شرياناً في جسدها.

اكتملت قائمة الممنوعات:

1. ممنوع الصور.
2. ممنوع الأماكن.
3. ممنوع المراقبة.

لقد بنوا جداراً عازلاً عالياً جداً.. لكنهم نسوا أن الجدران العالية لا تمنع الأحلام من التسلل، ولا تمنع الذاكرة من الخيانة.

الفصل الحادي عشر: الوحدة تختار ضحاياها

الوحدة كائن خبيث، لا يهاجمك وأنت مشغول، ولا يدهمك وسط ضجيج العمل. إنه ينتظر بصبر يحسد عليه حتى تأتي لحظة "السكون"، اللحظة التي تضع فيها رأسك على الوسادة، أو تجلس فيها وحيداً في سيارتك عند إشارة المرور، فينقض عليك وينهش قلبك ببرودة تامة.

مر شهر على الفراق.

ظن مازن في البداية أن حياة العزوبية ستكون استعادة لأيام مجده القديمة؛ سهر، أصدقاء، وحرية مطلقة بلا مساءلة.

قرر أن يخرج مع أصدقائه القدامى، "شلة العزاب" التي طالما حسدوه على استقراره الزوجي، وطالما حسدهم هو على انطلاقهم.

جلسوا في مقهى صاخب، الدخان يملأ المكان، وأصوات الضحك تتعالى.

قال صديقه "حسام" وهو يضرب على كتفه:

- "أخيراً يا بطل عدت إلينا! لقد تحررت من القفص الذهبي. الآن أنت تملك وقتك، تملك مالك، ولا يوجد من يسألك (أين كنت ولماذا تأخرت)."

ضحك الجميع، وضحك مازن معهم، لكن ضحكته كانت جوفاء، بلا صدق في صدره.

نظر حوله. رأى الطاولات المجاورة.

رأى شاباً وفتاة يتهاامسان ويضحكان على شيء لا يراه غيرهما.

رأى رجلاً يمسك يد زوجته وهما يغادران المكان.

شعر بغربة مفرجة وسط أصدقائه. كان جسده معهم، لكن عقله كان يبحث عن "ونس".

كان يفتقد تلك الألفة، يفتقد وجود شخص واحد في هذا العالم يفهمه من نظرة عين دون الحاجة لشرح النكات أو تبرير الصمت.

أدرك مازن ليلتها أن الحرية طعمها مر جداً حين لا تجد من تشاركه تفاصيلها. عاد إلى شقيقته في وقت متأخر، وبدلاً من أن يشعر بالراحة لأنه لا يوجد من يلومه على التأخير، شعر بوحشة قاتلة لأن لا أحد لاحظ غيابه أصلاً.

أما هناء، فقد اختارت الوحدة ضحيتها بطريقة مختلفة.

كانت تحاول ملء الفراغ بزيارات عائلية مكثفة. ذهبت لحضور حفل زفاف ابنة خالتها. ارتدت فستاناً أنيقاً، ووضعت مساحيق تجميل تخفي الهالات السوداء تحت عينيها، ورسمت ابتسامة عريضة على وجهها.

في قاعة الزفاف، كانت الموسيقى تصدح، والجميع يرقصون. الأزواج يتميلون معاً.

جلست هناء على الطاولة وحيدة. كانت تراقب العروسين. نظرة العريس لعروسه، تلك النظرة المليئة بالوعود والأحلام، ذكرت لها بيوم زفافها. ذكرت لها بوعود مازن التي تبخرت.

اقتربت منها إحدى قريباتها، سيدة مسنة محبة للحديث، وسألته بصوت مرتفع غطي على الموسيقى:

- "أين زوجك يا هناء؟ لم نره معك منذ فترة، هل هو مسافر؟"

تجمدت الابتسامة على وجهه هناء. شعرت أن كل العيون في الطاولة تتجه نحوها.

- "نعم.. مسافر." كذبت وهي تشعر بمرارة في حلقها.
 - "حفظه الله لك، الوحدة صعبة يا ابنتي، لكن الغائب سيعود."
- "الغائب سيعود".

الجملة نزلت عليها كالمطرقة. غانبيها لن يعود. غانبيها أصبح "غريباً".

استأذنت وخرجت من القاعة. لم تستطع تحمل المزيد من مشاعر الشفقة أو الأسئلة الفضولية.
ركبت سيارة أجرة وعادت للمنزل.

وفي الطريق، بينما كانت تنتظر لأضواء المدينة من النافذة، شعرت بضعف شديد.
كانت بحاجة لكتف. أي كتف.

كانت بحاجة لصوت رجل يقول لها: "أنت جميلة"، أو "لا تحزني".

لم تكن تبحث عن مازن تحديداً، بل كانت تبحث عن "الأمان" الذي فقدته.

كان "خزان العاطفة" لديها فارغاً تماماً، وهذا أخطر وضع يمكن أن تكون فيه المرأة؛ فالجوع العاطفي قد يجعلها تقبل بأي "فتات" يلقي إليها.

في تلك الليلة، كان "الفراغ" هو السيد المطلق في حياة الاثنين.

مازن في شقته الباردة، يقلب في قنوات التلفاز بلا هدف، يشعر بحاجة ماسة لأنثى تملأ هذا السكون، أنثى تعيد ترتيب فوضى حياته وتشعره بأنه مرغوب.

وهناك في غرفتها، تحتضن وسادتها، تشعر بحاجة ماسة لرجل ينتشلها من انكسارها، رجل يعيد إليها ثقته بنفسها ويشعرها بأنها تستحق الحب.

كانت أرضيتهما هشة، ودفاعاتهم منهارة.

الوحدة نخرت في عظامهم حتى أصبحوا جاهزين تماماً للتعلق بأي "قشة" نجاة تظهر في الأفق.

لم يكونوا يعلمون أن القدر يخبئ لهم "مي" و"حاتم" خلف الأبواب المغلقة، وأن هذه الهشاشة النفسية هي التي ستدفعهم نحو علاقات جديدة بسرعة قد يندمون عليها -أو لا- لاحقاً.

لقد اختارتهم الوحدة كضحايا.. والآن، هم جاهزون للمرحلة التالية.

الفصل الثاني عشر: محاولات فاشلة للنسيان

النسيان ليس قراراً تتخذه وتتفذه في الصباح التالي؛ النسيان عملية حيوية معقدة، تشبه التنام الجروح، لا يمكنك استعجالها، وكلما عثت بالجرح لتتفدده، زدت مدة شفائه. لكن مازن وهناء لم يملكا الصبر، فقررا اللجوء إلى "المسكنات السريعة".

قررت هناء أن تبدأ التغيير من الخارج، متبعة النصيحة الكلاسيكية لكل امرأة مجروحة: "غيري شكلك، تتغير نفسيتك".

وقفت أمام المرأة في صالون التجميل، ونظرت لشعرها الطويل الذي كان مازن يحبه. كان دائماً يقول لها: "لا تقصيه أبداً".

أغمضت عينيها وقالت لمصفف الشعر بصوت حاسم:

"قصه.. قصه قصيراً جداً".

سقطت الخصلات الطويلة على الأرض، ومع كل خصلة تسقط، كانت هناء تتخيل أنها تتخلص من شهر من ذكرياتها معه.

عندما فتحت عينيها، رأت امرأة أخرى في المرأة. امرأة عصرية، قوية، ولامحها حادة.

ذهبت للعمل في اليوم التالي بهذا المظهر الجديد. انهالت عليها عبارات الإعجاب من الزملاء:

"تبدين رائعة!".

"هذا التغيير جعلك أصغر بعشر سنوات!".

ابتسمت لهم وشكرتهم، لكن في المساء، عندما عادت لغرفتها ووقفت أمام مرآتها الخاصة لتزيل مساحيق التجميل، بكت.

بكت لأنها أدركت الحقيقة المرة: لقد غيرت "الغلاف"، لكن الكتاب من الداخل لا يزال يحمل نفس القصة الحزينة. الشعر ينمو، لكن القلب المكسور لا ينمو مكانه قلب جديد.

على الجانب الآخر، لجأ مازن إلى حل بدني عنيف: "الإرهاق".

اشترك في صالة للألعاب الرياضية، وقرر أن يصب كل غضبه وطاقته المكبوتة في حمل الأثقال.

كان يذهب كل يوم بعد العمل، يركض لأميال على الجهاز، ويحمل أوزاناً تكسر العظام، حتى يتسبب عرقاً وتصرخ عضلاته من الألم.

كان هدفه بسيطاً: أن يعود للمنزل منهكاً لدرجة تجعله يسقط في النوم فوراً دون تفكير. كان يريد أن يخرس الصوت الذي في رأسه بصوت طقطقة عضلاته.

بعد التمرين، كان يجلس في مقهى النادي الصحي.

في إحدى المرات، اقتربت منه فتاة ترتدي ملابس رياضية، وابتسمت له بجرأة:

"أراك هنا كل يوم.. التزامك مثير للإعجاب".

نظر إليها مازن. كانت جميلة، وشابة، وفي ظروف أخرى كان سيبادلها الحديث وربما يغازلها. لكنه شعر ببرود تام.

حاول أن يبتسم، فخرجت ابتسامته باهتة وميتة:

"شكراً.. أحاول فقط تضييع الوقت".

انسحبت الفتاة بعد أن شعرت بصدوده غير المبرر.

جلس مازن يلعن نفسه. لماذا لم يتجاوب؟ لماذا لم يأخذ رقم هاتفها؟ أليس هذا ما يفعله الرجال العزاب؟
اكتشف أن جسده قد أصبح أقوى، وعضلاته مفتولة، لكن روحه كانت ضامرة. كان يحمل أثقالاً من الحديد، لكنه عاجز عن حمل ثقل ذكرياته.

تعددت المحاولات، والنتيجة واحدة: "فشل".

حاولت هناء الاتغماس في دورات تعليمية لغات وبرمجة، لكنها كانت تسرح في المحاضرات وتتذكر نقاشاتها معه.
حاول مازن تجديد أثاث الشقة، فاشتري أريكة جديدة ولوحات حديثة، لكنه وجد نفسه يجلس على الأريكة الجديدة يتذكر كيف كنا يجلسان على القديمة.

أدركا في نهاية هذا الفصل المؤلم أن الهروب للأمام لا يجدي نفعاً إذا كنت مقيداً بسلاسل من الخلف.
ال فراغ الذي تركه كل منهما داخل الآخر كان أكبر من أن يملأه "قصة شعر" أو "عضلات مفتولة" أو "دورة تدريبية".
كانا بحاجة لشيء أقوى.

كانا بحاجة لـ "إنسان" آخر.

ليس ليحبوه، بل ليستخدموه كدرع بشري يحتمون خلفه من قسوة الوحدة.

كانا كغريقين في وسط المحيط، يصارعان الموج، وعلى وشك الاستسلام.. وفجأة، لاحت في الأفق سفينتان.
سفينة اسمها "مي".

وسفينة اسمها "حاتم".

لم يسأل مازن أو هناء عن وجهة السفن، ولا عن قبطانها.. كل ما كان يهمهم هو الصعود على متن أي شيء ينقذهم من الغرق، حتى لو كان الثمن هو الغرق في مكان آخر.

الفصل الثالث عشر: ظهور "مي": ضوء خافت في العتمة

كانت حياة مازن في الأسابيع الأخيرة تشبه فيلماً صامتاً بالأبيض والأسود. روتين قاتل: استيقاظ، عمل، صالة ألعاب رياضية، ثم نوم يشبه الغيبوبة. كان قد نجح في بناء حصن عالي حول نفسه، حصن يمنع دخول الألم، لكنه يمنع دخول الفرحة أيضاً.

في صباح يوم الثلاثاء كئيب، كان مازن يجلس في قاعة الاجتماعات بالشركة، يستمع بملل لمدير التسويق وهو يشرح خطة الربع السنوي الجديد. كانت الأصوات تتداخل في أذنه لتصبح طنيناً مزعجاً. كان يرسم خطوطاً عشوائية بقلمه على الورقة أمامه، وعقله سارح في الفراغ.

فجأة، فُتح باب القاعة بانفداع خفيف، ودخلت فتاة شابة تحمل ملفات كثيرة وحقيبة حاسوب، وتبدو وكأنها في سباق مع الزمن.

"أنا آسفة جداً على التأخير! المصعد تعطل في الدور الرابع واضطرت للعودة على الدرج."

قالتها وهي تلهث، ووجهها محمر قليلاً من المجهود. كان صوتها يحمل نغمة موسيقية غريبة، نغمة مفعمة بالحياة كسرت رتابة الاجتماع الممل.

نظر إليها المدير بابتسامة متسامحة:

"لا بأس يا آنسة مي، تفضلي. يا جماعة، أحب أن أعرفكم بزميلتنا الجديدة، (مي)، سنتضم لفريق الإبداع والتصميم بداية من اليوم."

رفعت مي رأسها وابتسمت للجميع. كانت ابتسامتها واسعة، عفوية، وتكشف عن غمزة صغيرة في خدنها الأيسر. كانت ترتدي وشاحاً ملوناً بألوان زاهية (أصفر وبرتقالي)، في تضاد صارخ مع البدلات الرسمية الرمادية والكحلية التي يرتديها الجميع، بما فيهم مازن.

جلست في المقعد الفارغ المقابل لمازن مباشرة.

أثناء الاجتماع، لاحظ مازن شيئاً غريباً. كانت مي لا تتوقف عن الحركة؛ تعبت بقلمها، تعدل خصلة من شعرها المجعد، وتكتب ملاحظات بحماس. كانت كتلة من الطاقة الحركية وسط تماثيل من الشمع.

عندما انتهى الاجتماع، وبدأ الجميع في لملمة أوراقهم، سقط قلم مازن وتدرج تحت الطاولة ليصل عند قدميها.

نزلت مي سريعاً لتلتقطه قبل أن يتحرك هو، ورفعت له بابتسامة:

"تفضل.. يبدو أن قلمك يحاول الهروب من الاجتماع، لا ألومه بصراحة."

فوجئ مازن بتعليقها العفوي. نظر في عينيها لأول مرة عن قرب. كانت عيناها بلون العسل، وتلمعان بذكاء وفضول.

"شكراً.. قالها بصوت خفيض، واكتشف أنه نسي كيف يبسم للغرباء. "الاجتماعات هنا طويلة فعلاً."

"طويلة؟ دي دهور!" ضحكت بخفة، ثم مدت يدها: "أنا مي.. والظاهر إننا هنتغل سوا في المشروع الجديد، لأنني شوفت اسمك في ملفات الفريق."

تردد مازن للحظة، ثم مد يده وصافحها. كانت يدها صغيرة ودافئة.

"أهلاً بيكي.. أنا مازن."

"تشرفنا يا أستاذ مازن. بس قولني، هو الجو هنا دائماً هادي ورسمي كده؟ ولا أنا اللي جاية بطاقة زيادة؟"

لأول مرة منذ شهر، شعر مازن برغبة حقيقية في الرد، في الكلام. كانت عفويتها معدية، تكسر الحواجز الجليدية التي بناها.

- "لا، هو دائماً كده. بس يمكن وجودك يغير الجو شوية." اتسعت ابتسامتها وكأنها حققت انتصاراً صغيراً:
- "ده وعد! أنا تخصصي إضافة الألوان للأماكن الباهتة."

انسحبت مي لتلحق بمديرها، تاركة وراءها رائحة عطر خفيف برائحة الفانيليا والياسمين. رائحة مختلفة تماماً عن العطور الكلاسيكية التي اعتاد عليها.

وقف مازن مكانه لثوانٍ، يراقبها وهي تخرج من القاعة وتلقي التحية على عامل البوفيه بباريحية. عاد لمكتبه، وجلس.

لأول مرة، لم يفتح صورة هناء في خياله.

كان يفكر في الجملة التي قالتها: "قلّمك يحاول الهروب".

وجد نفسه يبتسم، ابتسامة حقيقية، صغيرة جداً وغير مرئية، لكنها كانت هناك.

شعر وكأن نافذة صغيرة فتحت في غرفة مظلمة ومغلقة منذ زمن. الهواء الذي دخل منها لم يكن كافياً لتغيير الجو تماماً، لكنه كان كافياً ليذكره بأن هناك هواءً نقياً في الخارج.

كانت "مي" مختلفة عن "هناء" في كل شيء.

هناء كانت الهدوء، الرزانة، التخطيط، والألوان الهادئة.

مي كانت الفوضى المحببة، العفوية، الضحك العالي، والألوان الصارخة.

في ذلك المساء، عندما عاد مازن لشقته الفارغة، لم يشعر بنفس الوحشة القاتلة. كان هناك صوت جديد يتردد في أذنه، صوت يخبره أن الحياة ربما لا تزال تخبئ له فصولاً أخرى غير فصل الأحزان.

أمسك هاتفه، وبحث عن اسمها في مجموعة العمل على التطبيق.

وجد صورتها. كانت صورة كرتونية مضحكة وليست صورة شخصية رسمية.

ضحك بصوت مسموع في الغرفة الفارغة.

- "مجنونة.. تمتم بها، وهو لا يدري أن هذا "الجنون" هو بالضبط الدواء الذي تحتاجه روحه المريضة بالروتين والحزن.

كان ظهور مي خافتاً، مجرد شرارة، لكن الشرارات الصغيرة هي التي تشعل الحرائق الكبيرة.. أو تنير الطرق المظلمة.

الفصل الرابع عشر: ظهور "حاتم": الملاذ الآمن

كانت هناك تعتقد أن أسوأ ما في الانفصال هو الحزن، لكنها اكتشفت أن هناك عدواً أشرس يدعى "القلق". ذلك الشعور المستمر بأنك مكشوف الظهر، وأن عليك حماية نفسك من العالم وحده.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساءً. بقيت هناك في الشركة لساعات إضافية لإنهاء بعض الملفات المعقدة، وربما للهروب من العودة لبيت العائلة المزدهم بالشفقة.

نزلت من مبنى الشركة وهي تجر قدميها جراً. الشارع كان شبه خالٍ، وأعمدة الإنارة تصدر ضوءاً برتقالياً باهتاً. وقفت على الرصيف تحاول إيقاف سيارة أجرة، لكن السيارات كانت تمر بسرعة دون اكتراث.

هبّت رياح باردة جعلتها تنكمش داخل معطفها. شعرت بتلك الرجفة المألوفة، رجفة الخوف والوحدة. تذكرت كيف كان مازن في السنوات الأولى يأتي ليأخذها، أو على الأقل يهاتفها ليطمئن أنها ركبت وسيلة مواصلات آمنة. الآن، هي مجرد امرأة وحيدة على رصيف بارد.

فجأة، توقفت سيارة سوداء فارها بهدوء بجوار الرصيف. انخفض الزجاج الأمامي ببطء.

• "أستاذة هناك؟"

كان صوتاً رخيماً، هادناً، وعميقاً.

نظرت هناك بحذر. إنه "حاتم"، المستشار القانوني الجديد للشركة. رجل في منتصف الثلاثينيات، يتميز بملامح جادة، ونظرة ثاقبة توحى بالثقة، وشعر بدأ الشيب يزينه عند الصدغين، مما أضاف له وقاراً وجاذبية خاصة. لم يجمعها به سوى اجتماعات رسمية قليلة وتحيات عابرة في الممرات.

• "أستاذ حاتم.. مساء الخير." ردت بتردد.

• "الوقت متأخر والمنطقة هنا هادئة زيادة عن اللزوم. هل تنتظرين أحداً؟" سأل بأدب جم، دون أي تطفل في نبرته.

• "أحاول إيجاد سيارة أجرة، لكن يبدو أن الحظ يعاندني اليوم." حاولت أن تبتسم لتخفي توترها.

فتح حاتم قفل الأبواب وقال بنبرة حازمة لكنها لطيفة:

• "تفضلي، سأوصلك في طريقي. لا يصح أن تقفي هكذا."

ترددت هناك. صوت "الحذر" في رأسها صرخ: لا تركبي مع رجل غريب. لكن صوت "التعب" كان أعلى: إنه زميل محترم، وأنت منهكة، والجو بارد.

• "لا أريد أن أتعب حضرتك، منزلي بعيد قليلاً."

• "لا يوجد تعب. تفضلي قبل أن تمطر."

ركبت السيارة.

كانت السيارة من الداخل عالماً آخر. دافئة، تفوح منها رائحة عطر جلدي فاخر، وصوت المذياع منخفض جداً على إذاعة للأغاني الكلاسيكية القديمة. كان هناك "هدوء" يغلف المكان، هدوء يختلف تماماً عن صخب سيارة مازن وأغانيه الحديثة وعصبيته في القيادة.

قاد حاتم السيارة بثبات ورزانة. لم يسرع، ولم يطلق بوق السيارة بعصبية. ظل صامتاً لدقائق، تاركاً لها مساحة لتستعيد أنفاسها. ثم قال فجأة، دون أن يلتفت إليها:

"تبدين مرهقة جداً يا أستاذة هناء. العمل لا يرحم، أليس كذلك؟"

نظرت إليه. كان يركز في الطريق، ويده ممسكتان بالمقود باسترخاء وثقة.

"فعلاً.. الفترة الماضية كانت ضاغطة جداً. أحاول أن أشغل نفسي بالشغل كي لا أفكر في..."

توقفت فجأة. كادت أن تقول "كي لا أفكر في حياتي المنهار".

التفت إليها حاتم للحظة، نظرة سريعة ولكنها بدت وكأنها قرأت ما بداخلها:

"الهروب بالعمل مسكن جيد، لكنه ليس علاجاً. أحياناً نحتاج أن نتوقف لنلتقط أنفاسنا، وإلا سنسقط."

كانت كلماته بسيطة، لكنها لمست وترأ حساساً. "الوقوع". هي تشعر أنها تقع منذ أسابيع ولا تجد قاعاً تستقر فيه.

"المشكلة أن الحياة لا تنتظرنا لتنتفس يا أستاذ حاتم. يجب أن نجري لنلحق بها."

ابتسم حاتم ابتسامة هادئة، ظهرت فيها خطوط دقيقة حول عينيه تدل على الحكمة والخبرة:

"من قال إننا يجب أن نلحق بها؟ دعيها تجري. المهم أن نكون نحن بخير. أنا تعلمت هذا الدرس بالطريقة الصعبة. لا شيء يستحق أن نحرق أعصابنا من أجله، طالما نملك الصحة وراحة البال."

شردت هناء في كلامه. "راحة البال". متى كانت آخر مرة شعرت فيها براحة البال؟ مع مازن، كانت حياتها عبارة عن شعلة متقدة من العواطف؛ حب جنوني، غيرة، شجار، صلح. لكنها لم تعرف معه هذا النوع من "السكينة".

وصلوا إلى منزلها. أوقف السيارة وانتظر حتى فكت حزام الأمان.

"شكراً جزيلاً يا أستاذ حاتم. بجد أنقذتني النهاردة."

"العفو، هذا واجبي. وإذا احتجت أي مساعدة في الشغل، مكتبي مفتوح دائماً. لا تحملي الهم وحدك."

"لا تحملي الهم وحدك."

كانت هذه الجملة هي المفتاح.

نزلت من السيارة، ووقفت تراقبه وهو يغادر بهدوء كما جاء.

لم تشعر بقلبها يدق بعنف كما كان يحدث مع مازن في البدايات. لم تشعر بـ "فراشات في المعدة".

لكنها شعرت بشيء آخر، شيء كانت تفتقده بشدة وتتوق إليه أكثر من الحب.

شعرت بـ "الأمان".

دخلت المنزل، ولأول مرة منذ الانفصال، لم تشعر بالرغبة في البكاء. كان هناك شعور غريب بالدفء يملؤها. شعور بأن هناك شخصاً ناضجاً، قوياً، ومسؤولاً موجوداً في محيطها. شخص يمكنه أن يمكك بزمام الأمور عندما تتعب يداها.

في تلك الليلة، قارنت هناء بين "صخب" مازن و"هيبه" حاتم.

كان مازن يشبه الألعاب النارية؛ مبهرة، جميلة، لكنها تحترق بسرعة وتترك رماداً.
أما حاتم.. فقد بدا لها مثل "المدفأة" في ليلة شتاء؛ ثابتة، هادئة، وتمنح دفناً مستمراً لا ينقطع.
وهكذا، بينما كان مازن يجذب لنور "مي" الساطع، كانت هناء تبدأ في الميل نحو ظل "حاتم" الآمن.

الأطراف اكتملت.

مازن مع مي (الانجذاب للحياة والعفوية).

هناء مع حاتم (الانجذاب للأمان والنضج).

الفصل الخامس عشر: الخطوة الأولى نحو الآخر

لا تبدأ العلاقات الجديدة دائماً باعترافات كبيرة، بل تبدأ بكسر حاجز بسيط، بضحكة مشتركة، أو بمقعدين متجاورين في مقهى. في هذا الأسبوع، قرر القدر أن يمنح مازن وهناء "هدنة" من الأحزان، ويفتح لهما باباً للتجربة.

في عالم مازن:

كانت الساعة تشير لمنتصف النهار. مازن يجلس أمام حاسوبه، يأكل شطيرة صحية بلا طعم، وعقله مشغول بالأرقام والجدول.

فجأة، ظهر رأس "مي" من خلف شاشته، وعيناها تلمعان بمكر محبب:

"أستاذ مازن.. هل يمكن أن أسألك سؤالاً وجودياً؟"

رفع مازن حاجبيه باستغراب:

"تفضلي.. سؤال وجودي في وسط العمل؟"

"بالضبط. هل أنت مقتنع فعلاً أن ما تأكله هذا يسمى طعاماً؟ إنه يبدو كعقاب وليس غذاءً!"

ضحك مازن رغماً عنه، ووضع الشطيرة جانباً:

"إنه طعام صحي. أحاول الحفاظ على لياقتي."

"اللياقة مهمة، لكن الروح لها حق أيضاً! اسمع، أنا وزملاء القسم سنطلب (فطائرًا) من المطعم المجاور. رائحتها وحدها كفيلة برفع الروح المعنوية. هل ستشاركونا، أم ستكمل أكل هذا الورق المقوى؟"

تردد مازن. "مازن القديم" كان سيرفض بلباقة ويكمل عمله. لكنه تذكر شعور الخفة الذي انتابه حين تحدث معها المرة الماضية.

"حسنًا.. سأغامر. احسبي حسابي في فطيرة واحدة."

صفتت مي بيديها بحماس طفولي:

"عظيم! لقد انضمت لفريق الأشرار. سأرسل لك القائمة حالاً."

بعد نصف ساعة، كانوا يجلسون جميعاً حول طاولة الاجتماعات المستديرة التي تحولت لمائدة طعام. كانت مي هي مركز الحديث، توزع النكات، وتقلد صوت المدير ببراعة جعلت الجميع يضحكون حتى دمعت أعينهم، بمن فيهم مازن.

وجد مازن نفسه يشارك في الحديث، يعلق، ويضحك بصوت عالٍ لم يسمعه لنفسه منذ شهور.

في نهاية الاستراحة، مالت عليه مي وقالت بصوت هامس:

"أرايت؟ العالم لم ينهار لأنك أكلت فطيرة دسمة وضحكت قليلاً."

نظر في عينيها العسليتين، وشعر بتيار دافئ يسري في جسده.

"عندك حق.. شكراً يا مي."

- "على الرحب والسعة. بالمناسبة، ذوقك في اختيار ربطات العنق يحتاج لبعض التعديل، لكننا سنعمل على ذلك لاحقاً."

غمزت له وانصرفت لمكتبها.

عاد مازن لمكتبه، لكنه لم يعد للعمل فوراً. أخرج هاتفه، ولأول مرة، لم يبحث عن اسم هناع. بل فتح محادثة "مي" وكتب: "الفطيرة كانت ممتازة.. لكن انتقاد ربطة العنق غير مقبول." أرسلها، وانتظر الرد بقلب يخفق كقلب مراهق.

في عالم هناع:

على النقيض تماماً، كانت أجواء هناع مغلقة بالجدية والتوتر.

تم استدعاؤها لمكتب المدير العام لمناقشة خطأ قانوني في أحد العقود التي راجعتها. كانت يداها ترتجفان وهي تمسك الأوراق. الخطأ لم يكن خطأها بالكامل، لكنها كانت الحلقة الأضعف، وكانت تخشى أن يتم تحميلها المسؤولية.

كان المدير يتحدث بحدة، وهناع تحاول الدفاع عن نفسها بصوت مخنوق، والدموع تتجمع في عينيها. شعرت أنها صغيرة جداً، ووحيدة جداً في مواجهة هذا الهجوم.

فجأة، طُرق الباب ودخل "حاتم" بهدوء وثقة.

- "عفواً للمقاطعة، لكن سمعت أن هناك مشكلة بخصوص عقد شركة التوريدات."

نظر إليه المدير:

- "نعم يا أستاذ حاتم، الأستاذة هناع غفلت عن بند الجزاءات."

تقدم حاتم ووقف بجوار هناع. لم ينظر إليها، لكنه وقف بمسافة قريبة جداً، وكأنه يشكل درعاً بشرياً لها.

تناول العقد من يد المدير بهدوء، وقرأه سريعاً، ثم قال بنبرة واثقة لا تقبل الجدل:

- "هذا ليس خطأ الأستاذة هناع. هذا البند تمت إضافته في المسودة الأخيرة التي لم تعرض عليها من الأساس. أنا راجعت سجلات البريد الإلكتروني، والنسخة التي وصلتها كانت سليمة. الخطأ من القسم الإداري، وليس من القسم القانوني."

صمت المدير، وبدا عليه التراجع أمام حجج حاتم الدامغة.

- "أه.. إذا كان الأمر كذلك، سأراجع الإدارة. شكراً للتوضيح يا حاتم. تفضلي يا آنسة هناع."

خرجت هناع من المكتب وساقاها لا تحملاتها. لحق بها حاتم في الممر.

استندت إلى الجدار وتنهت بقوة، وكأنها كانت تحبس أنفاسها تحت الماء.

- "أستاذ حاتم.. أنا بجد مش عارفة أشكرك إزاي. كنت ضايعة جوه."

ابتسم حاتم تلك الابتسامة الرصينة التي تبعث السكينة:

- "لا داعي للشكر. الحق حق. لم أقبل أن تُظلمني وأنا موجود."

نظرت إليه هناع بامتنان عميق. في هذه اللحظة، لم تكن تراه مجرد زميل. كانت تراه "رجلاً". الرجل الذي يحمي، يدافع، ويحتوي الموقف دون توتر.

- "أصابعك تلفت تماماً" قال حاتم وهو يخرج من جيبه قطعة شوكولاتة صغيرة داكنة. "خذي هذه، ستعدل مزاجك قليلاً. واشربي كوباً من الماء البارد."

أخذت منه الشوكولاتة. لامست أصابعها أصابعه لثانية واحدة.

- "شكراً.."

- "على فكرة، أنا ذاهب لشراء قهوة بعد العمل، هناك مكان هادئ قريب يصنع قهوة ممتازة.. لو أحببت الانضمام لي ومناقشة بعض الأمور بعيداً عن توتر المكتب."

كانت دعوة صريحة. دعوة هادئة، محترمة، لكنها تحمل في طياتها رغبة في القرب.

نظرت هناء لقطعة الشوكولاتة في يدها، ثم نظرت لعينيه المظمنتين.

تذكرت مازن، وكيف كان يتركها تواجه مشاكلها وحدها مؤخراً.

ثم نظرت لحاتم، الذي تدخل لإنقاذها دون أن تطلب.

- "أحب ذلك جداً يا أستاذ حاتم."

في ذلك المساء، خطا كل منهما خطوته الأولى.

مازن ضحك مع مي وراسلها، متجاوزاً حدود الزمالة نحو الصداقة والإعجاب.

وهناء جلست مع حاتم في المقهى الهادئ، تشرب القهوة وتتحدث عن مخاوفها، وتستمع لنصائحه، متجاوزة حدود الزمالة نحو الشعور بالأمان والاحتواء.

كانت الخطوات صغيرة، لكن الاتجاه كان واضحاً:

الابتعاد عن "نحن" القديمة.. والاقتراب من "أنا" الجديدة مع شخص آخر.

الفصل السادس عشر: مازن ومي.. اختبار القبول

كان يوم الجمعة، وهو اليوم الذي اعتاد مازن قضاءه سابقاً في طقوس مقدسة من النوم والراحة المنزلية. لكن اليوم، كان واقفاً أمام مرآته يرتدي قميصاً "كاجوال" زاهي الألوان، ويحاول إقناع نفسه بأن ما سيفعله فكرة جيدة.

كانت مي قد دعتَه بالأمس بطريقتها المباشرة التي لا تقبل الرفض:

- "بكرة عندنا معرض فني صغير في وسط البلد لواحد صاحبنا، وهنتمشى بعدها في الشوارع القديمة وناكل كشري. لازم تيجي، كفاية قعدة في البيت زي العواجيز!"

نزل مازن إلى وسط البلد. الزحام، الضجيج، ورائحة عوادم السيارات المختلطة برائحة القهوة. لم يكن هذا عالمه المفضل، لكنه قرر أن يسايرها.

التقى بها أمام الجاليري. كانت ترتدي فستاناً بسيطاً مزركشاً بالزهور، وشعرها الكيرلي يحيط بوجهها كإطار فوضوي جميل. لوحث له بحماس وسط الزحام، وشعر بقلبه يقفز قفزة صغيرة.

- "أهلاً بالكانن البيبوتوي!" قالتها وهي تصافحه بحرارة. "مبروك الخروج من الكهف."

دخلا المعرض. كانت اللوحات سريالية، غريبة، وغير مفهومة بالنسبة لمازن الذي يميل للكلاسيكية والواقعية. وقف أمام لوحة عبارة عن لطخات ألوان متداخلة وسأل بجديّة:

- "ممكّن تشرحيلي إيه المعنى العميق وراء طبّق المكرونة ده؟"

ضحكت مي بصوت عالٍ لفت أنظار الحضور:

- "دي مش مكرونة يا متقف! دي بتعبّر عن فوضى المشاعر الإنسانية. بس تصدق.. أنا كمان جعت لما شوفتها."

قضى الساعتين التاليتين في عالم لم يطأه من قبل. تعرف على أصدقائها؛ مجموعة من الفنانين، الكتاب، والموسيقيين. كانوا يتحدثون بصوت عالٍ، يضحكون بعمق، ويناقدون أفكاراً لم تخطر بباله يوماً. شعر بينهم وكأنه "موظف" غريب وسط "فنانين"، لكن الغريب أن مي لم تتركه يشعر بالغربة. كانت تجره للمحادثات، تقدمه للجميع بفخر، وتترجم له نكاتهم الخاصة.

بعد المعرض، تمشوا في شوارع وسط البلد.

توقفت مي فجأة أمام بائع كتب قديمة على الرصيف، وبدأت تقلب في الكتب بشغف.

- "بص الكتاب ده يا مازن! طبعة نادرة من الستينات."

نظر مازن للكتاب المتهاك، ثم نظر إليها. كانت عيناها تلمعان ببريق لم يره في عيني أحد من قبل تجاه كتاب قديم.

- "أنتي بتحبّي الحاجات القديمة أوي كده؟"

- "جداً.. الحاجات دي ليها روح. ليها حكاية. مش زي الحاجات الجديدة اللي بتلمع وخلص."

سكت مازن قليلاً. تذكر بيته المرتب، أثاثه الحديث، وحياته المنظمة.

- "بس القديم ساعات بيبقى كراكيب يا مي. ساعات لازم نرمي عشان نوسع مكان للجديد."

نظرت إليه مي نظرة عميقة، واختفت ابتسامتها للحظة:

- "ومين قال إننا لازم نرمي؟ ممكّن نرمم. ممكّن نعيد تدوير. القديم هو اللي عملنا، لو رميناه هنبقى فاضيين."

شعر مازن أنها لا تتحدث عن الكتب فقط. كلامها لمس وترأ حساساً بداخله. هو "رمى" علاقته بهناء لأنها أصبحت قديمة ومستهلكة، بينما مي تتحدث عن "الترميم". هل كان متسرعاً؟

هز رأسه ليتردد الفكرة. هو هنا الآن، مع هذه الفتاة المدهشة التي تجعله يرى العالم بألوان مختلفة.

"طيب يا ستي، عشان خاطر فلسفتك دي، هعزمك على أكل طبق كشري فيكي يا مصر."

جلسوا في مطعم الكشري الشعبي، وسط الضجيج وصوت الملاعق. كان مازن يأكل بشهية، ومي تحكي له عن مغامراتها في الجامعة.

فجأة سألته:

"أنت ليه دائماً بتحاول تكون مثالي يا مازن؟"

توقف والمعلقة في منتصف الطريق لفمه:

"مثالي؟ أنا؟"

"آه.. لبسك، كلامك، حتى طريقة أكلك. خايف تغلظ. خايف تبان ضعيف أو مش مسيطر. ريح نفسك شوية. الناس بتحب البني آدمين الحقيقيين، مش التماثيل."

كانت هذه الجملة بمثابة "صفعة إفاقة". هناء كانت تطلب منه "النضج" و"المسؤولية"، أما مي فتطلب منه "الخفة" و"التفانيّة".

شعر وكأن حملاً ثقيلاً انزاح عن كتفيه. مع مي، لا يحتاج أن يكون الزوج المثالي، أو الموظف الكفاء. يمكنه أن يكون "مازن" فقط.

في نهاية اليوم، أوصلها لسيارتها.

"انيسطت النهاردة؟" سألته.

"أكثر مما كنت متخيل. شكراً إنك خرجتيني من القمقم."

ابتسمت بود:

"القمقم مفتوح دائماً يا مازن، أنت بس اللي كنت قافل على نفسك."

ركبت سيارتها وغادرت.

وقف مازن في الشارع وحده، لكنه لم يشعر بالوحدة. شعر بالامتلاء.

لقد نجح في "اختبار القبول". استطاع أن يدخل عالمها الصاخب دون أن ينزعج، بل واستمتع به.

أدرك في تلك اللحظة أن انجذابه لمي ليس مجرد نزوة عابرة.. إنه احتياج. احتياج لشخص يعلمه كيف يضحك على "طبق المكرونة" المرسوم في لوحة، وكيف يتقبل فوضى الحياة بصدر رحب.

لكن، في زاوية بعيدة من عقله، ظل صدى جملتها يتردد: "القديم هو اللي عملنا.. لو رميناه هنبقى فاضيين".

هل سيستطيع مازن فعلاً أن يملأ فراغه بـ "مي"، أم أن القديم سيظل يطاردّه؟

الفصل السابع عشر: هناء وحاتم.. البحث عن الاستقرار

إذا كان مازن قد اختار "المغامرة" كعلاج لروحه، فإن هناء اختارت "السكينة". كانت منهكة من الدراما، من المفاجآت السينة، ومن تقلبات المزاج. كانت تبحث عن علاقة تشبه الأرض الصلبة، لا تشبه الأمواج.

دعاها "حاتم" للعشاء في عطلة نهاية الأسبوع. لم يكن اختيار المكان عشوائياً مثلما كان يفعل مازن (الذي كان يقرر في اللحظة الأخيرة بناءً على الزحام). حاتم حجز طاولة في زاوية هادئة بمطعم كلاسيكي راقٍ يطل على النيل، قبل الموعد بيومين، وأرسل لها الموقع والتوقيت بدقة.

وصلت هناء، ووجدته بانتظارها. وقف فور رؤيتها، وسحب لها الكرسي لتجلس.

"تبدين أنيقة جداً الليلة يا هناء." قالها بنبرة هادئة وتقدير واضح، دون مبالغة مصطنعة.

• "شكراً لك يا حاتم. المكان رائع ومريح للأعصاب."

بدأ العشاء، وكان الحديث بينهما ينساب بسلاسة. حاتم ليس من النوع الذي يلقي النكات المتلاحقة، لكنه مستمع من الطراز الأول. كان يسألها عن رأيها في قضايا معينة، عن كتب قرأتها، وعن طموحها المهني. كان يعامل عقلها باحترام شديد، وهذا شيء افتقدته في فترات صراعها مع مازن الذي كان يسفه من آرائها أحياناً.

أثناء تناول الطعام، قالت هناء:

• "أتعلم يا حاتم؟ أنا لم أشعر بهذا الهدوء منذ زمن طويل. حياتي كانت عبارة عن سياق دائم، وضجيج لا يتوقف."

وضع حاتم الشوكة والسكينة جانباً، وشبك يديه أمامه على الطاولة ناظراً إليها بتركيز:

• "الضجيج يستهلك العمر يا هناء. أنا رجل جربت الحياة، وأدركت في النهاية أن الحب ليس في المعارك والمناوشات، بل في (الوضوح). أن أعود لبيتي وأنا أعلم أن هناك من يفهمني دون أن أتكلم، وأن هناك سلاماً ينتظرني لا حرباً."

كلماته كانت بليماً لجراحها. "الوضوح". هذا ما كانت تحتاجه. مازن كان غامضاً في أيامه الأخيرة، متردداً، ومتقلباً. أما حاتم، فكان كتاباً مفتوحاً وواضحاً كالشمس.

• "أنت محق." قالتها بشرود. "لكن أحياناً نخاف من الهدوء، نظنه مللاً."

ابتسم حاتم ابتسامة الواثق:

• "الهدوء ليس مللاً، الهدوء هو النضج. هو أن نستمتع بفنجان قهوة معاً دون الحاجة لافتعال أحداث. هو أن ننق في بعضنا لدرجة أننا لا نحتاج لمراقبة الهواتف."

ارتشفت هناء الماء لتبتلع غصة في حلقها. "مراقبة الهواتف". كأنه قرأ تاريخ أوجاعها.

• "حاتم.. لماذا أنت وحيد حتى الآن؟ رجل بمواصفاتك ونجاحك.."

لم يتهرب من السؤال، بل أجاب بصراحة:

• "لأنني لا أقبل بأنصاف الحلول. كنت أبحث عن امرأة تعرف قيمة الاستقرار، امرأة ناضجة عقلياً قبل عاطفياً. علاقاتي السابقة انتهت لأنني كنت أبحث عن شريكة حياة، وهن كن يبحثن عن مغامرات عاطفية مؤقتة. وعندما رأيتك.. شعرت أنك تفهمين معنى (بناء بيت)."

شعرت هناء باحمرار وجنتيها. كان تصريحاً شبه مباشر.

في هذه اللحظة، رن هاتف حاتم. نظر للشاشة، ثم ضغط زر "صامت" وقلب الهاتف على وجهه.

"ألا تريد الرد؟ قد يكون مهماً." سألته.

"لا شيء أهم من وقتي معك الآن. العمل والناس يمكنهم الانتظار."

قارنت هذا الموقف تلقائياً بالآلاف المرات التي قاطع فيها مازن حديثهما ليرد على صديق، أو ليتابع مباراة، أو ليرى رسالة تافهة.

حاتم يمنحها "الأولوية المطلقة". هذا الرجل يشعرها أنها ملكة متوجة، وليست مجرد قطعة أثاث في المنزل.

عندما أوصلها للمنزل، لم يرحل فوراً. نزل من السيارة ووقف معها أمام البوابة.

"هنا..". ناداها بصوت خفيض.

التفتت إليه.

"أنا لا أحب اللف والدوران. أنا مرتاح لوجودك في حياتي، وأتمنى أن نأخذ خطوة جدية عندما تكونين مستعدة. أنا لا أضغط عليك، خذي وقتك للتعافي، لكن اعلمي أنني هنا.. ومستعد للانتظار."

لم يطلب رداً. لم يحاول الإمساك بيدها قسراً. اكتفى بابتسامة وداع رصينة، وركب سيارته وغادر.

دخلت هناك غرفتها، وألقت بجسدها على السرير.

كان قلبها يدق، لكن ليس دقات "اللهفة المجنونة"، بل دقات "الطمأنينة".

شعرت أنها عثرت أخيراً على "المرسى".

مازن كان البحر الهائج، الجميل والمخيف في آن واحد.

أما حاتم، فهو الشاطئ، الأرض الثابتة التي لن تخونها ولن تغرقها.

أمسكت هاتفها، ونظرت لصورتها في المرآة. رأت امرأة تستعيد توازنها.

همست لنفسها:

"أنا محتاجة أعيش في أمان. كفاية قلق."

في تلك الليلة، حسمت هناك أمرها. ستعطي فرصة لهذا الاستقرار. ستغلق باب الماضي المليء بالعواصف، وتفتح نافذة المستقبل المظلة على حديقة حاتم الهادئة.

كانت تعتقد أنها نسيت مازن، وأن المقارنة انتهت لصالح حاتم.

لكنها لم تكن تعلم أن "الهدوء الزائد" أحياناً.. يوقظ الذكريات الصاخبة المدفونة في الأعماق.

هناك اقتنعت بحاتم، ومازن مندمج مع مي.

الفصل الثامن عشر: عقدة المقارنة

المقارنة هي عدو السعادة الأول. إنها تلك العدسة الخبيثة التي تجعلك ترى ما في يد غيرك لامعاً، وما في يدك باهتاً، حتى لو كان ذهباً. ورغم أن مازن وهناء كانا يعتقدان أنهما تجاوزا الماضي، إلا أن الذاكرة قررت أن تنصب لهما فخاً في تفاصيل الحياة اليومية البسيطة.

في بيت مازن:

أصيب مازن بنزلة برد شديدة. استيقظ وجسده يرتعش وحلقه ملتهب، وعظامه تؤلمه بشدة.

في سنواته الخمس مع هناء، كان هذا الموقف له "بروتوكول" ثابت ومقدس. كانت هناء تتحول فوراً إلى ممرضة محترفة؛ تغلق الستائر لتمنع الضوء المزعج، تحضر حساء الدجاج الساخن، ترتب الأدوية بمواعيد دقيقة بجوار السرير، وتضع يدها الباردة على جبينه كل ساعة لتقيس الحرارة. كان المرض في وجودها مريحاً، لأن هناك من يحمل عنك عبء العناية بنفسك.

اتصل بـ "مي" ليخبرها أنه مريض ولن يستطيع الخروج.

"ألف سلامة عليك يا مازن! أنا جاية حالاً، مش هسيبك لوحك".

شعر بالامتنان لحماسها.

بعد ساعة، وصلت مي. دخلت الشقة كالإعصار.

"يا ساتر! الشقة كتمة أوي يا مازن، لازم نجدد الهواء عشان الميكروبات تخرج".

فتحت الستائر على مصراعها، فدخل ضوء الشمس القوي الذي ألم عينيه المجهنتين. فتحت النوافذ فدخل تيار هواء بارد زاد من ارتعاشه.

دخلت المطبخ لتعد له شيئاً. سمع صوت أوانٍ تسقط، وصوت ضجيج مستمر.

بعد قليل، خرجت تحمل طبقاً غريباً.

"عملتك خلطة سحرية.. زنجبيل على قرفة على شطة! دي بتفجر الفيروسات فوراً".

نظر مازن للكوب برعب. معدته لا تتحمل الشطة وهو سليم، فكيف وهو مريض؟

"مي.. أنا محتاج حاجة دافية وهادية، ليمون دافئ مثلاً، وشورية خفيفة".

نظرت إليه باستنكار مازح:

"شورية إيه يا عم العيان؟ أنت لازم تعرق عشان تخف. اشرب بس".

جلست بجواره، وبدأت تحكي له بصوت عالٍ وحماس عن مشكلة حدثت معها في الشارع، وتشغل موسيقى صاخبة من هاتفها لترفع روحه المعنوية.

كان مازن يبتسم مجاملة، لكن رأسه كان يكاد ينفجر من الصداع.

في تلك اللحظة، رغباً عنه، قفزت صورة "هناء" إلى عقله.

تذكر هدوءها. تذكر لمستها الحانية الصامتة. تذكر كيف كانت تفهم أنه يحتاج "للسكون" لا "للترفيه" عندما يكون مريضاً.

نظر للفوضى التي أحدثتها مي في المطبخ، وللضوء الساطع، وللمشروب الحارق.. وقال في نفسه بأسى:
"مي مبهجة.. لكنها لا تعرف كيف تعني بي. هناك كانت تعرف."

في سيارة حاتم:

على الجانب الآخر، كانت هناك تجلس بجوار حاتم في سيارته، عاندين من حفل موسيقي في دار الأوبرا. الحفل كان راقياً، وحاتم كان قمة في الذوق والأدب.

في الطريق، بدأ المذياع يبث أغنية قديمة وشعبية جداً، أغنية مليئة بالإيقاع والكلمات البسيطة التي يحفظها كل المصريين.

دون تفكير، وبدافع الحنين واللحظة، بدأت هناك تنددن مع الأغنية، ثم ارتفع صوتها قليلاً، وبدأت تتمايل برأسها وتضحك:

"الله! الأغنية دي ذكرياتها تحفة.. فاكريا حاتم كانت بتشتغل في كل الأفراح زمان؟"

كانت تنتظر منه أن يضحك، أن يرفع صوت المذياع، أن يعني معها بجنون للحظة واحدة يكسر فيها وقاره. لكن حاتم مد يده، وخفض صوت المذياع حتى كاد يختفي.

قال بابتسامة هادئة، لكنها باردة:

"الأغاني دي كلماتها ركيكة جداً بصراحة، مش عارف إزاي كانت ناجحة. المهم، كنت عايز أكلّمك في موضوع ترتيبات الفرش للشقة الجديدة.."

سكتت هناك فجأة. ماتت الضحكة في حلقها.

شعرت وكأن أحدهم سكب دلواً من الماء المثلج على حماسها.

تذكرت "مازن".

تذكرت كيف كانا، عندما تعمل هذه الأغنية، يفتحان نوافذ السيارة، ويغنيان بأعلى صوتيهما دون الاكتراث لنظرات الناس. تذكرت جنونه، عفويته، وقدرته على تحويل لحظة عادية في الزحام إلى ذكرى لا تنسى.

نظرت لحاتم. إنه رجل مثالي. عاقل، رزين، ومحترم.

لكنه "ممل".

نعم، اعترفت لنفسها بالكلمة المحرمة. إنه ممل.

يفتقد لشرارة الجنون التي كانت تجعل الحياة مع مازن لها طعم مختلف.

حاتم يعطيها "الأمان"، لكنه يسرق منها "البهجة".

عقدة المقارنة:

في تلك الليلة، عاد كل من مازن وهناء إلى سريريه، ومعه شبح الآخر.
مازن في شقته التي عمته الفوضى بعد رحيل مي، ينظف المطبخ وهو مريض، ويفتقد نظام هناء.
وهناء في غرفتها، تراجع حديثها الجاد مع حاتم، وتفقد ضحكات مازن التافهة.
أدرك الاثنان حقيقة مرعبة:

الجديد ليس كاملاً. والقديم لم يكن كله سيئاً.

مازن حصل على "الإثارة" مع مي، لكنه فقد "السكينة".

هناء حصلت على "السكينة" مع حاتم، لكنها فقدت "الحياة".

بدأ كل منهما يضع كفتي الميزان في عقله:

هل يمكنني العيش مع "مي" وتحمل فوضويتها مقابل بهجتها؟

هل يمكنني العيش مع "حاتم" وتحمل جديته المفرطة مقابل أمانه؟

السؤال الأخطر الذي بدأ يلعب في الظلام:

هل تسرعنا؟ هل كان من الممكن إصلاح ما بيننا بدلاً من استبداله؟

لكن الكبرياء كان يمنع هذا السؤال من الخروج للعلن. لذا، ناما وهما يضغطان على هذه الأفكار لدفنها، غير
مدركين أن الأفكار المدفونة حية.. لا تموت، بل تنمو في الظلام لتصبح وحوشاً.

الفصل التاسع عشر: الخيانة بالذاكرة

أقصى أنواع الخيانة ليست تلك التي ترتكبها في حق شريكك، بل تلك التي ترتكبها في حق نفسك، وفي حق الشخص الجديد الذي وضع ثقته بك. إنها "الخيانة بالذاكرة"؛ حين يكون الجسد حاضراً في "الآن"، بينما الروح هائمة في "الأمس".

في سيارة مازن (مع مي):

كانت ليلة هادئة، والمطر بهطل برفق على زجاج السيارة. كانت "مي" تجلس بجوار مازن، سعيدة للغاية لأنها أهدته لتوها "ألبوماً غنائياً" لفرقة مستقلة تحبها، وتريد منه أن يسمعها.

كانت الموسيقى تعزف، ومي تعني مع الكلمات بصوت منخفض، وتتنظر إلى مازن بنظرة مليئة بالدفع والإعجاب المتزايد.

فجأة، مدت مي يدها ووضعته على يده الممسكة بناقل الحركة. كانت حركة عفوية، بريئة، ومليئة بالموودة.

شعر مازن بدفع يدها.

أغمض عينيه لجزء من الثانية.

في تلك العتمة القصيرة، خدعه عقله.

استحضر ملمس يد "هناء". تلك اليد التي حفظ تضاريسها، طريقة تشابك أصابعها معه، وحتى الخاتم الذي كان يضغط على إصبعه.

تخيل للحظة أن التي تجلس بجواره هي هناء. انتظر أن يشم رائحة "الفانيليا" الهادئة التي تميزها. انتظر أن يسمع تعليقها المعتاد عن القيادة بتهور.

فتح عينيه، فاصطدم بالواقع.

رائحة العطر هنا قوية وحادة (عطر مي).

الموسيقى غريبة وصاخبة.

واليد.. ليست يدها.

سحب مازن يده فجأة وكان تياراً كهربائياً صعقه.

نظرت إليه مي بصدمة وحيرة:

"مالك يا مازن؟ في حاجة ضايقتك؟"

ارتبك مازن. شعر بخزي شديد. إنه "يخونها" وهي جالسة بجواره. إنه يستخدم وجودها ليستحضر طيف امرأة أخرى.

"لا.. مفيش. بس حسيت بشد عضلي في إيدي فجأة." كذب، وصوته يرتجف.

نظرت إليه مي بشك، لكنها قررت تجاوز الموقف.

أما مازن، فقد غرق في بحر من الشعور بالذنب. كيف يمكنه أن يكمل في هذه العلاقة وهو يبحث عن ملامح "القديمة" في وجه "الجديدة"؟ كان يشعر أنه لص، يسرق مشاعر مي ليرمم بها حنينه لهناء.

في متجر الأثاث (هناء وحاتم):

قرر حاتم أن يصطحب هناء لاختيار ألوان "الستائر" لمكتبه الجديد، كنوع من إشراكها في حياته، وربما كبروفة لحياتهما القادمة.

وفقاً أمام قسم الأقمشة. كان حاتم يمسك بقطعة قماش رمادية ثقيلة، ويتحدث بجدية تامة:

- "انظري يا هناء، هذا القماش ممتاز، عازل للضوء والصوت، وعملي جداً في التنظيف. وسعره منطقي."

كانت هناء تنظر للقماش، لكنها لم تكن تراه.

كانت ترى مشهداً قديماً في نفس هذا المتجر، ولكن مع "مازن" قبل خمس سنوات.

تذكرت حين اختبأ مازن خلف ستارة حمراء فاقعة، ولف نفسه بها كالمومياء، وقفز أمامها ليخفيها وسط المتجر، مما جعلها تضحك بصوت عالٍ حتى كاد الأمن يطردهما.

يومها اشترت ستائر لم تكن عملية، ولم تكن عازلة للضوء، لكنها كانت "مبهجة".

- "هناء؟ ما رأيك؟"

صوت حاتم الرزين أعادها للواقع.

نظرت إليه. إنه يتحدث عن "العزل" و"العملية".

ابتسمت ابتسامة باهتة:

- "جميل يا حاتم. اختيار موفق."

- "هل أنت متأكدة؟ أشعر أنك لست معي." سأل حاتم وهو يدقق في ملامحها.

شعرت هناء برغبة في البكاء. هي فعلاً ليست معه. هي تقف بجسدها أمام هذا الرجل المحترم الذي يقدم لها كل ما يطلبه العقل، لكن قلبها يركض في ممرات الذاكرة خلف الرجل المجنون الذي كان يضحكها.

كانت تعقد مقارنة ظالمة في كل ثانية.

حاتم يختار الأفضل للمستقبل.

مازن كان يختار الأجل للحاضر.

وهي الآن تفتقد "الحاضر".

- "أنا فقط مرهقة قليلاً من الإضاءة." قالتها لتهرب من نظراته الثاقبة.

أمسك حاتم يدها برفق، وضغط عليها ليطمئننها.

نظرت ليدته. كانت يداً قوية، آمنة. لكنها لم تشعر بتلك "العرشة". لم تشعر بكهرباء الحب.

شعرت فقط ببرود "الواجب".

في تلك اللحظة، أدركت هناء أنها تمارس أفسى أنواع الكذب. إنها توهم هذا الرجل بأنها تبني معه مستقبلاً، بينما هي لا تزال تسكن في ماضيها.

المواجهة مع النفس:

عاد كل منهما لمنزله تلك الليلة وهو محمل بعبء ثقيل.

مازن جلس في شرفته، يدخن بشراهة.

هناك جلست في غرفتها، تمسح دموعها.

كلاهما وصل لنفس الحقيقة المرعبة:

النسيان لم يحدث.

الاستبدال فشل.

الشخصيات الجديدة (مي وحاتم) رائعون، ولا عيب فيهم. العيب في "الأوعية" المكسورة التي يحاولون صب الحب فيها.

مازن وهناء أوعية مكسورة، تسرب أي حب جديد، ولا تحتفظ إلا برواسب الحب القديم.

أخرجت هناء هاتفها. ترددت كثيراً.

كتبت في خانة البحث على فيسبوك (من حساب والدتها لأنها حظرت حسابها): "مازن".

رأت صورته الجديدة. يبدو أنحف، وربما أكثر وسامة، لكن عينيه حزينتان.

همست للصورة:

"أنت لسه فيا.. لسه بتبوظلي حياتي حتى وأنت بعيد."

وفي نفس اللحظة، كان مازن يفتح صندوقاً قديماً خبأه فوق الدولاب. أخرج منه "الوشاح" الذي نسيته هناء يوم رحيلها.

شمه بعمق. الرائحة كانت قد بدأت تتلاشى، لكن بقاياها كانت كافية لتمزيق قلبه.

"مش عارف أنسى.. ومش عارف أكمل."

كانت هذه هي "الخيانة" الحقيقية.

أن يكونوا مع آخرين، لكنهم في الحقيقة.. لا يزالون "معاً" في عالم الذاكرة الموازي.

الوضع وصل لقمة التعقيد.

الخطوة الجاية لازم تكون مواجهة بين الماضي والحاضر.

الفصل العشرون: طيف لا يغادر

يقولون إن "الاسم" هو هوية الإنسان، لكن في لحظات الحب والاعتقاد، يتحول الاسم إلى "شفرة" خاصة تفتح أبواب القلب دون استئذان. الكارثة تقع عندما تستخدم "المفتاح القديم" لفتح "الباب الجديد".

زلة لسان (مازن ومي)

كانت أمسية هادئة في شقة مازن. "مي" كانت تحاول جاهدة أن تضي لمستها على المكان، فأشترت نباتات ظل صغيرة ووضعتها في الزوايا، وغيرت ترتيب الوسائد.

كان مازن يجلس على الأريكة، مغمض العينين، يعاني من صداع نصفي يفتك برأسه نتيجة ضغط العمل.

دخلت مي من المطبخ وهي تحمل صينية عليها كوب من الشاي بالنعناع، ورائحة المعجنات الساخنة التي أعدتها خصيصاً له تملأ المكان.

اقتربت منه بخطوات خفيفة، وجلست على حافة الأريكة، ثم وضعت يدها الباردة برفق على جبينه الساخن. كانت لمستها حاتية، مليئة بالاهتمام.

همست بصوت رقيق:

"لقد صنعت لك الشاي كما تحبه، خفيف السكر."

في تلك اللحظة، وبينما كان مازن في حالة بين اليقظة والنوم، وشعر بالراحة تسري في جسده بسبب اهتمامها، استرخى عقله الواعي تماماً، وتولى "العقل الباطن" القيادة.

دون تفكير، ودون أن يفتح عينيه، ارتسمت على وجهه ابتسامة ممتنة، وقال بصوت هامس وواضح جداً:

"شكراً يا.. هناء."

سقطت الكلمة في الغرفة كقنبلة يدوية.

توقف الزمن.

سحبت مي يدها عن جبينه ببطء، وكأنها لمست جمرًا.

فتح مازن عينيه فجأة، مدركاً للكارثة التي نطق بها لسانه. رأى وجه مي.. وقد تحول من المودة والابتسام إلى صدمة شاحبة.

جلس معتدلاً بسرعة، والارتباك يعقد لسانه:

"مي.. أنا.. أنا آسف. لم أكن أقصد، أنا مرهق جداً والأسماء تداخلت.."

قاطعته مي بصوت مرتعش، والدموع تتجمع في عينيها اللوزتين:

"تداخلت؟ أنا مي.. حبيبك الجديدة، وهي هناء.. طليقتك أو حبيبك القديمة. كيف تتداخل الأسماء إلا إذا كانت هي التي تحتل عقلك الآن؟"

"والله زلة لسان.. لا تعطي الموضوع أكبر من حجمه." حاول مازن الدفاع عن نفسه، لكن دفاعه كان هشاً.

وقفت مي، ومسحت دموعاً فرت من عينيها بعنف:

- "المشكلة ليست في الاسم يا مازن. المشكلة أنك عندما شعرت بالراحة والأمان معي، عقلك ترجم هذا الأمان على أنه (هنا). أنت ترتاح لها هي، حتى وأنا التي أصنع الشاي." حملت حقيبتها واتجهت للباب.

• "مي.. انتظري!"

- "لا تتصل بي الليلة يا مازن. أنا أحتاج أن أفكر.. هل أنا موجودة في حياتك فعلاً؟ أم أنني مجرد بديل بملامح مختلفة؟"

أغلق الباب خلفها.

بقي مازن واقفاً في منتصف الصالة، يلعن ذاكرته، ويلعن الاسم الذي حفر نفسه على لسانه كوشم لا يزول.

مطاردة الوهم (هنا وحاتم)

في التوقيت ذاته، كانت هنا تخوض معركتها الخاصة مع الأطياف.

كانت تتجول مع حاتم في أحد المراكز التجارية الكبرى. حاتم كان يتحدث عن خطط الإجازة الصيفية، وهنا تهز رأسها بالموافقة الآلية.

فجأة، وبينما كانوا يصعدون السلالم المتحركة، لمحت هنا شخصاً في الطابق المقابل.

نفس القامة الطويلة. نفس طريقة المشي المائلة قليلاً لليمين. ويرتدي قميصاً أزرق داكناً يشبه تماماً القميص الذي أهدته لمازن في عيد ميلاده الأخير.

توقف قلبها عن النبض.

مازن!

نسيت حاتم. نسيت البرستيج. نسيت أنها في مكان عام.

تحركت بشكل غريزي ومجنون. دفعت الناس أمامها وبدأت تركض عكس اتجاه السلم المتحرك، ثم نزلت الدرج ركضاً لتلحق بذلك الطيف قبل أن يختفي في الزحام.

- "هنا! ماذا تفعلين؟" نادى حاتم بصوت عالٍ، لكنها لم تسمعه. كانت أذناها لا تسمع سوى صوت دقات قلبها.

وصلت للطابق الأسفل، وظلت تركض وعيناها مثبتتان على القميص الأزرق.

اقتربت منه.. المسافة تقل.. خمسة أمتار.. متران..

مدت يدها وأمسكت بكتفه وهي تلهث:

• "مازن!"

التفت الرجل ببطء.

وجه غريب. ملامح مختلفة تماماً. شارب كثيف وعيون ضيقة.

- "نعم يا أنسة؟ هل أعرفك؟"

تجمدت هنا في مكانها. شعرت بدوار عنيف. إنه ليس هو.

تراجعت للخلف خطوة وهي تتمم باعتذارات غير مفهومة:

- "أسفة.. تشابه.. ظننتك شخصاً آخر.. أسفة."

استدارت لتجد حاتم يقف خلفها بمسافة قصيرة. كان يراقب المشهد كله. صدره يعطو ويهبط من أثر اللحاق بها، لكن ملامحه لم تكن غاضبة بقدر ما كانت "منطفئة".

اقترب منها بهدوء مخيف، وسأل بصوت منخفض:

- "هل كان هو؟"

نظرت هناء للأرض، عاجزة عن الكذب هذه المرة. عيونها الفرعة كانت تفضح كل شيء.

- "لا.. لم يكن هو. تشابه ملايس."

ابتسم حاتم ابتسامة حزينة:

- "أنا لا أسأل عن الرجل الغريب يا هناء. أنا أسأل عن الشخص الذي ركضت خلفه بلهفة لم أرها في عينيك لي أبدأ. كنت تبحثين عن (مازن)، أليس كذلك؟"

صمتت هناء. الصمت كان إجابة.

تتهد حاتم، وعدل نظارته بوقار، وقال جملة مزقت قلبها خجلاً:

- "من المؤلم جداً لرجل في سني ومكائتي، أن يركض خلف امرأة، بينما هي تركض خلف سراب رجل آخر."

استدار حاتم ومشى باتجاه المخرج، تاركاً إياها تقف وحيدة وسط الزحام.

هذه المرة، لم يمسك يدها. لم يعرض توصيلها.

تركها مع طيفها الذي لا يغادر.

الحصاد المر

في تلك الليلة، انهار كل شيء.

مي اكتشفت أنها "اسم مستعار" في حياة مازن.

وحاتم اكتشف أنه "محطة انتظار" في حياة هناء.

والأشباح التي ظن مازن وهناء أنهما دفناها، عادت لتسكن الواقع، وتفسد عليهما الفرصة الأخيرة للنجاة.

جلس مازن في شقته يحدق في السقف، وجلست هناء في غرفتها تحدق في الجدار.

الطيف كان أقوى من الواقع.

والماضي كان أشرس من أن يهزم بعلاقة عابرة.

أدركا الليلة حقيقة واحدة:

لا يمكنك أن تبدأ قصة جديدة، والصفحة القديمة لم تُطو بعد.. بل لا تزال مفتوحة ومبللة بالدموع.

الفصل الحادي والعشرون: لقاء المصادفة

كانت القاهرة في تلك الليلة تبدو أضيّق من ثقب إبرة. عندما يقرر القدر أن يجمع شخصين، فإنه يلغي كل قوانين الاحتمالات، ويجعل مدينة يسكنها الملايين تبدو وكأنها غرفة صغيرة لا مفر فيها من التلاقي.

بعد الكارثة التي حدثت مع "مي"، لم يستطع مازن العودة للمنزل. كان يشعر بالاختناق. قاده التجوال بلا هدف إلى منطقة "وسط البلد". تلك الشوارع القديمة التي تفوح منها رائحة التاريخ والغبار والحنين.

دون تخطيط مسبق، وجد قدميه تفتان أمام مكتبة "ليلي" القديمة. كان هذا هو ملاذهما السري سابقاً. مكان هادئ، رائحة الورق القديم فيه تغطي على رائحة المدينة، وصاحب المكتبة رجل عجوز لا يكثر بوجود الزبائن. تردد مازن أمام الباب. إنه ضمن "قائمة الممنوعات". لكنه الليلة، خالف كل القوانين. دفع الباب ودخل، باحثاً عن ركن هادئ يختبئ فيه من ضجيج أفكاره.

في الزاوية البعيدة من المكتبة، في قسم الروايات المترجمة، كانت هناك تقف.

بعد موقفها المهرج مع "حاتم" في المركز التجاري، هربت إلى هنا. كانت تبحث عن كتاب، أي كتاب، يأخذها لعالم آخر غير عالمها الذي أفسدته بيديها.

كانت تقلب صفحات رواية لـ "ديستوفسكي"، لكن عقلها كان شاردًا.

سمعت صوت جرس الباب يقرع.

لم تلتفت.

سمعت خطوات تقترب. خطوات ثقيلة، متباطئة.

توقفت الخطوات خلفها بمسافة قصيرة.

شمت رائحة مألوفة. رائحة عطر ممزوج برائحة سجائر خفيفة. رائحة حفرت في ذاكرتها الشمية لخمس سنوات.

تجمدت يدها على صفحة الكتاب.

هل يعقل؟

التفتت ببطء شديد، وكأنها تخشى أن يكون وهماً آخر مثل وهم المركز التجاري.

لكن هذه المرة، لم يكن وهماً.

كان مازن.

لحم ودم. يقف أمامها، شاحباً، نفته غير حليقة، وعيناه محاطتان بهالات سوداء تحكي قصة ليالٍ بلا نوم.

تلاقت العيون.

توقف الزمن في المكتبة العتيقة. اختفى صوت السيارات في الخارج، واختفى وجود صاحب المكتبة. لم يبق إلا هما، والمسافة القصيرة التي تفصل بينهما، والتي بدت وكأنها خندق عميق.

• "هناء.."

نطق اسمها بصوت مبسوح، وكأنه يتأكد من أنها حقيقة.
صدمته كانت مضاعفة. لم تكن الصدمة في رؤيتها فقط، بل في شكلها.
شعرها.. شعرها الطويل الذي كان يعشقه، اختفى.
أصبحت قصة شعرها قصيرة جداً، جريئة، أظهرت ملامح وجهها بوضوح، لكنها جعلتها تبدو كامرأة أخرى. امرأة لا يعرفها.

• "مازن.."

ردت بصوت خافت، وهي تضم الكتاب لصدرها كدرع واقٍ.
عينها كانت تمسحان وجهه بلهفة. لاحظت القميص غير المكوي بعناية، ولاحظت الحزن الساكن في نظراته.
تقدم مازن خطوة مترددة:

• "شعرك.. أشار بيده بحركة عفوية، ثم أسقط يده بجانبه. "قصيتيه."

ابتسمت ابتسامة مريرة، وتحسست أطراف شعرها القصير:

• "كان لازم أخف الأحمال شوية.. فبدأت بشعري."

صمت ثقيل ساد بينهما. صمت مليء بالأسئلة: كيف حالك؟ هل أنت سعيد؟ من هي الفتاة الجديدة؟ هل نسييتني؟
لكن الكبرياء كان حارساً يقظاً على ألسنتهم.

قال مازن محاولاً كسر الجليد، لكن صوته خانه:

• "الصدفة غريبة.. كنت فاكِر إنك بطلتي تيجي هنا."

• "وأنا كنت فاكِرة إنك نسييت المكان ده، زي ما نسييت حاجات كتير."

كانت جملة "ملغمة" بالعتاب.

نظر إليها مازن بعمق، وقال بصدق مفاجئ:

• "أنا ما نسييتش حاجة يا هناء. الذاكرة طلعت أصعب مما كنت فاكِر."

اهتزت هناء لهذه الجملة. كانت اعترافاً ضمناً بأنه يعاني مثلها.

• "باين عليك.. قالتها وهي تشير لوجهه. "شكلك مبهدل يا مازن. مفيش حد.. بياخد باله منك؟"

كانت تقصد "مي"، دون أن تذكر اسمها.

ابتسم مازن بسخرية من نفسه:

• "محدث بيعرف ياخد باله مني.. زيك."

نزلت الكلمة عليها كالماء البارد على حريق.

احمر وجهها، وارتبكت. كانت هذه الجملة كفيلاً بهدم كل دفاعاتها.
حاولت تغيير الموضوع بسرعة قبل أن تنهار وتتحول الجلسة لبقاء:

"أنا.. أنا كنت ماشية. الوقت متأخر."

• "هنا، استني."

تحرك مازن بسرعة ووقف أمامها، قاطعاً طريق الخروج.

نظر في عينيها مباشرة، بنظرة مليئة بالرجاء والألم:

• "أنتي مبسوطة؟ يعني.. في حياتك الجديدة؟"

كان سؤالاً فحاً.

لو قالت "نعم"، ستكذب وتقتله.

لو قالت "لا"، ستعترف بهزيمتها وتفتح باباً لا تملك شجاعة فتحه الآن.

اختارت إجابة دبلوماسية، لكن عينيها فضحتها:

• "بحاول أعيش يا مازن. بحاول ألاقى نفسي."

ثم سألته بجرأة:

• "وأنت؟"

نظر مازن للأرض، ثم رفع رأسه وقال بمرارة:

• "أنا تايه. من يوم (المناظرة).. وأنا تايه."

ظلا واقفين لثوانٍ أخرى. كانت الجاذبية بينهما قوية، تكاد تجذب أجسادهم للعناق رغماً عنهم. كان يكفي أن يمد أحدهم يده، لتنتهي الحرب.

لكن الخوف من الرفض، ورواسب الجرح القديم، منعتهم.

تراجعت هناء خطوة للخلف.

• "فرصة سعيدة يا مازن. خلي بالك من نفسك."

• "وأنتي كمان يا هناء.. خلي بالك من نفسك."

خرجت هناء من المكتبة بسرعة، وكأنها تهرب من حريق.

بقي مازن واقفاً مكانه، يتابع طيفها حتى اختفى في زحام الشارع.

نظر للكتاب الذي كانت تمسكه، ووجدته قد تركته على الطاولة في ارتباكها.

أمسكه. كان لا يزال دافئاً من أثر يدها.

فتحه، ووجد أنها ثنت زاوية صفحة معينة.

قرأ السطر الذي توقفت عنده:

"نحن لا نشفى من ذاكرتنا، ولهذا نحن لا نشفى من الحب."

أغلق الكتاب، وضمه لصدره، وأغمض عينيه.

اللقاء انتهى جسدياً.

لكن نفسياً.. الليلة بدأت معركة جديدة.

لقد تأكد الاثنان الآن من شيء واحد:

العلاقات الجديدة كانت مجرد "ضمادات" رخيصة.

والجرح تحتها.. لا يزال ينزف بغزارة.

الفصل الثاني والعشرون: لحظة إدراك

الحقيقة مثل ضوء الشمس؛ يمكنك أن تغلق الستائر لتتجاهلها، لكنك لا تستطيع أن تمنعها من الوجود. وبعد لقاء المكتبة، فتحت كل الستائر دفعة واحدة، وأصبحت الحقيقة ساطعة لدرجة تعمي الأبصار: مازن وهناء لا يزالان عالقيين في شبك بعضهما البعض، وأي محاولة للإنتكار هي جريمة في حق الأبرياء (مي وحاتم).

إنهاء المسرحية (مازن ومي)

لم ينتظر مازن للصبح. ذهب مباشرة إلى منزل "مي". وقف أمام بابها، وشعر بثقل العالم على كتفيه. هو يعلم أنها فتاة رائعة، مبهجة، وتستحق رجلاً يحبها بكل كيانه، لا رجلاً يبحث فيها عن ملامح امرأة أخرى.

فتحت مي الباب. كانت عيناها منتفتحتين قليلاً، يبدو أنها بكت بعد شجار "زلة اللسان".

نظرت إليه بجمود:

"جنت لتعتذر؟ أم جنت لتكمل مسلسل التبريرات؟"

نظر مازن في عينيها بعمق، وقال بصوت هادئ وحزين:

"جنت لأقول الحقيقة يا مي. الحقيقة التي كنت أهرب منها."

تراجعت للخلف لتسمح له بالدخول. جلسا في غرفة المعيشة التي كانت قبل أيام تضج بضحكاتهما.

"أنا رأيتها اليوم." قالها مازن مباشرة. "قابلت هناء بالصدفة."

لم تتفاجأ مي. ابتسمت ابتسامة ساخرة ومريرة:

"كنت أعرف. كنت أعرف من الطريقة التي تغيرت بها ملامحك بمجرد دخولك من الباب. رأيتها.. وعاد إليك (السيستم) القديم."

"الأمر ليس كذلك يا مي." حاول أن يشرح، لكنه توقف. الكذب الآن خيالة. "بلى، الأمر كذلك. عندما رأيتها، أدركت أنني ظلمتكم معي. أنا حاولت أن أحبك، حاولت بصدق أن أبدأ معك صفحة جديدة، لكنني اكتشفت أن الصفحة القديمة لم تنته بعد. أنا لست فارغاً من الداخل لأستقبلك.. أنا ممتلئ بها."

صمتت مي طويلاً. كانت تمسك وسادة وتضغط عليها بقوة حتى ابيضت مفاصل أصابعها. ثم رفعت رأسها وقالت بكبرياء الأتني الجريحة:

"أتعلم يا مازن؟ أنا أكره أن أكون (الدواء). أكره أن أكون (فترة النقاهة). أنا امرأة تستحق أن تكون هي الحدث الرئيسي، لا مجرد فاصل إعلاني مبهج في فيم درامي حزين."

وقفت وأشارت للباب:

"أذهب يا مازن. اذهب وحل مشاكلك بعيداً عني. أنا ملونة جداً، وحياتك رمادية جداً.. ونحن لا نليق ببعضنا." وقف مازن. كان يشعر بالخزي، لكنه شعر أيضاً براحة غريبة. راحة الصدق.

"أنا أسف يا مي. أنت تستحقين الأفضل."

"أعرف." قالتها وهي تدير وجهها عنه. "أعرف أنني أستحق الأفضل، ولهذا.. أنا من ينهي هذا الآن. وداعاً." خرج مازن، وأغلق الباب خلفه. خسر "البهجة"، لكنه استعاد "احترامه لنفسه".

الاعتراف بالذنب (هناء وحاتم)

في الجانب الآخر، كانت هناء تجلس مع حاتم في سيارته أمام منزلها. كان الصمت ثقیلاً ومخيفاً. حاتم، بذكانه المعهود، كان يشعر ببرودة هناء المتزايدة منذ حادثة المركز التجاري.

قررت هناء أن تكون شجاعة. استجمعت قواها، ونظرت إليه:

"حاتم.. أنا لا أستطيع أن أكمل."

لم يظهر على وجه حاتم أي رد فعل عنيف. ظل ممسكاً بالمقود بهدوء، ونظر للأمام:

"كنت أنتظر هذه الجملة."

"أنت رجل عظيم." أكملت هناء وصوتها يرتجف. "أنت تمنحني كل ما تحلم به أي امرأة؛ الأمان، الاحترام، الاستقرار. لكن.."

"لكن الأمان لا يكفي." قاطعها حاتم وهو يلتفت إليها بابتسامة حكيمة وحزينة. "الزواج يا هناء ليس شركة تأمين. الزواج يحتاج لقلب حاضر. وأنت.. قلبك ليس هنا. قلبك لا يزال يركض في الشوارع بحثاً عن ذلك المجنون."

بكت هناء. بكت لأنها جرحت هذا الرجل النبيل.

"أنا حاولت يا حاتم. والله حاولت أن أنسى، وحاولت أن أحب الحياة الهادئة معك. لكن في كل مرة كنت أراك، كنت أقارن. وفي كل مرة كنت تلمس يدي، كنت أبحث عن لمسة أخرى. هذا غش.. وأنت لا تستحق الغش."

أخرج حاتم منديلاً ورقياً وأعطاه لها. حتى في لحظة الوداع، كان نبيلاً.

"أنا لا ألومك يا هناء. القلب ليس زر كهرباء نضغط عليه ليضيء أو ينطفئ. أنت جريئة، والجريح لا يحسن الاختيار. أنتِ بحثت عن (عكاز) لتتسندى عليه، وكنت أنا ذلك العكاز. والآن.. يبدو أنك قررت المشي وحدك."

"سامحني."

"مسموحة." قالها بصوت عميق. "لكن نصيحة من رجل خبير: لا تعودى إليه إلا إذا كنت متأكدة أن المشاكل التي فرقتكم قد حُلَّت. الحب وحده لا يبني بيتاً يا هناء.. الحب وحده أحياناً يهدمها."

نزلت هناء من السيارة. راقبت سيارة حاتم وهي تبتعد في هدوء الليل.

خسرت "الأمان"، لكنها استعادت "حريتها".

مواجهة الفراغ

عاد مازن لشقته وحيداً.

وعادت هناء لغرفتها وحيدة.

اختفت "مي" بألوانها.

واختفى "حاتم" بحكمته.

عاد العداد إلى الصفر.

عاد الألم، وعادت الوحدة، لكن هذه المرة، كانت وحدة "تنظيفة". وحدة خالية من الكذب والمجاملات والعلاقات البديلة.

جلس مازن على سريرته، ونظر للخاتم الذي لا يزال يحتفظ به في الدرج.

وجلست هناء تمسك بالكتاب الذي لمسها مازن في المكتبة.

أدركا في تلك اللحظة حقيقة واحدة:

لقد جربا الهروب، وفشلا.

جربا الاستبدال، وفشلا.

جربا الكراهية، وفشلا.

لم يتبق أمامهما سوى طريق واحد. الطريق الذي تجنباه منذ البداية. الطريق الوعر والمخيف..

طريق المواجهة.

همس مازن في غرفته المظلمة:

- "مفيش مهرب منها.. لازم نتكلم."

وهمست هناء لنفسها:

- "المنافرة لسه ما خلصتتش."

الأقنعة سقطت، والساحة فضيت ليهما الاتنين بس.

مازن وهناء هيقرروا يتقابلوا، بس المرة دي مش صدفة.. المرة دي بقرار واعى عشان يحسموا مصيرهم.

الفصل الثالث والعشرون: إنصاف الحاضر

استيقظ مازن في صباح اليوم التالي وهو يشعر بخفة غريبة في صدره. اختفى ثقل الكذب، واختفى التوتر الناتج عن تمثيل دور العاشق الولهان أمام "مي". كان وحيداً، نعم، لكنه كان "حقيقياً".

على الجانب الآخر، كانت هناء تقف في شرفتها، تراقب شروق الشمس. رحل "حاتم" ومعه وعود الأمان المستقر، لكنها شعرت أنها استعادت رنتيها وبدأت تتنفس الهواء الطبيعي، لا الهواء المكيف والمعقم الذي كانت تعيش فيه معه.

في تمام العاشرة صباحاً، أمسك مازن هاتفه.

لم يتردد هذه المرة. لم يكتب ويمسح. كانت الرسالة واضحة ومحددة في ذهنه منذ ليلة أمس.

كتب:

"نحن مدينون لبعضنا بجلسة أخيرة. ليس للشجار، ولا للعتاب. بل للفهم. هل يمكننا أن نلتقي؟"

وصلت الرسالة لهناء. قرأتها، وابتسمت ابتسامة هادئة. كانت تنتظر هذه الخطوة. كانت تعلم أن لقاء المكتبة لم يكن صدفة عابرة، بل كان "جرس إنذار".

ردت بكلمة واحدة:

"موافق. الساعة الخامسة على النيل."

على ضفاف النيل

اختاروا مكاناً مفتوحاً. النيل يجري أمامهما، شاهداً أزلياً على حكايات العشاق التي تبدأ وتنتهي وتعود.

وصل مازن أولاً. ارتدى ملابس بسيطة، وحلق ذقنه، وبدأ أكثر ترتيباً من يوم المكتبة، وكأنه يستعد لموعد غرامي أول.

وصلت هناء. كانت ترتدي ملابس زاهية الألوان، تخلصت من الألوان القاتمة التي كانت ترتديها في فترة "الحداد النفسي".

جلسا على مقعد خشبي يطل على النهر. كانت هناك مسافة صغيرة بينهما، مسافة الاحترام والحذر.

بدأ مازن الحديث، وكان صوته هادئاً، خالياً من نبرة الدفاع عن النفس التي ميزت "المناظرة الأخيرة" قبل شهر:

• "أنا ظلمت مي. وأنتي ظلمتي حاتم. نحن استخدمنا أشخاصاً أبرياء لنحاول نسيان بعضنا، وفشلنا."

نظرت هناء للمياه الجارية وقالت:

• "كنت أبحث عن الأمان الذي افتقدته معك في الأيام الأخيرة. حاتم قدمه لي على طبق من ذهب، لكنني اكتشفت أن الأمان بدون شغف هو (موت بطيء)." .

التفت مازن إليها:

- "وأنا كنت أبحث عن البهجة والحياة التي اختفت من بيتنا. مي كانت شعلة نشاط، لكنني اكتشفت أن البهجة بدون تفاهم وعمق هي (ضوء)."

ساد صمت مريح بينهما. صمت الاعتراف بالحقيقة.

أكمل مازن:

- "هناء.. المشكلة لم تكن فيكي، ولا في. المشكلة أننا توقعنا عن بذل المجهود. اعتبرنا وجودنا معاً أمراً مفروغاً منه. أنا أهملتك لأنني ظننتك باقية للأبد. وأنتي حاصرتيني لأنك خفتي من ابتعادي."
- "كنا نحتاج لهذه (الخضة)." قالتها هناء وعيناها تلمعان. "كنا نحتاج أن نفترق، أن نجرب الحياة مع غيرنا، لنعرف قيمة ما كان بيننا. أنا عرفت الآن أن عيوبك.. هي العيوب الوحيدة التي يمكنني التعايش معها. وأن مميزات غيرك.. لا تغريني."

مد مازن يده، ووضعها فوق يدها المستقرة على المقعد. هذه المرة، لم تسحب يدها.

- "هل يعني هذا أننا سنعود؟" سأل مازن بلهفة مشوبة بالخوف.

سحبت هناء يدها ببطء، ونظرت إليه بجديّة تامة:

- "لا يا مازن. لا يمكننا أن (نعود)."

تجمدت ملامح مازن، وشعر بالخيبة.

أكملت هناء بسرعة:

- "لا يمكننا أن نعود لمازن وهناء القدامى. تلك النسخة من علاقتنا ماتت، وماتت بمشاكلها وتراكماتها. إذا عدنا لنفس النقطة، سنصل لنفس النهاية."
- "إذاً؟ ماذا نفعل؟"

- "نحن بحاجة لنبدأ من جديد. علاقة جديدة، بشروط جديدة، وبوعي جديد. نحن الآن (ناضجان). تعلمنا الدرس بالطريقة الصعبة. لا أريدك أن تكون (زوجي) بحكم العادة، أريدك أن تكسب قلبي من جديد، وأنا سأحاول أن أكسب قلبك من جديد."

فهم مازن ما ترمي إليه. إنها لا تريد "ترميم" البيت المهدم، بل تريد "بناء" بيت جديد على نفس الأرض، ولكن بأساسات أقوى.

ابتسم، ولمعت في عينيه نظرة التحدي المحب:

- "يعني تقصدين أننا الآن في فترة (خطوبة)؟"

ضحكت هناء، تلك الضحكة الصافية التي افتقدتها لشهور:

- "تقريباً. اعتبرنا نتعرف على بعضنا لأول مرة. أستاذ مازن.. أنا هناء، مطلقة حديثاً، وعصبية قليلاً، لكنني أطبخ مسقعة ممتازة."

ضحك مازن من قلبه، ومد يده لمصافحتها رسمياً:

- "تشرفنا يا آنسة هناء. أنا مازن.. أعزب، فوضوي قليلاً، لكنني تعلمت درساً قاسياً في تقدير النعم، وأبحث عن شريكة حياة تفهمني من نظرة عيني." تصافحاً. كانت المصافحة دافئة، قوية، ومليئة بالوعد. في تلك اللحظة، أنصفاً "الحاضر". لم يبكي على "الماضي"، ولم يقلق من "المستقبل". قررا أن يعيشا "الآن". أن يمنحا حبهما فرصة ثانية حقيقية، بعيداً عن ضغوط الزواج الروتيني، وبعيداً عن أشباح البدلاء. قاما ليتمشيا على الكورنيش، كتفاً بكتف. لم يعودا لبيت واحد الليلة. عاد كل منهما لمنزله، لكنهما عادا بقلوب مملوءة بالأمل. كانت هذه بداية "العلاقة الثانية" بين نفس الشخصين.
-

الفصل الرابع والعشرون: إغلاق الدائرة

لم تكن العودة "ضغطة زر" كما يحدث في الأفلام، بل كانت عملية بناء دقيقة تشبه فن "الكينتسوغي" الياباني؛ وهو إصلاح الفخار المكسور بملئه بالذهب، ليصبح الوعاء بعد إصلاحه أجمل وأقوى مما كان عليه قبل الكسر. مر شهران على لقاء النيل. شهران كانا بمثابة "فترة خطوبة" جديدة ومكثفة. كانا يلتقيان يومياً، يتحدثان في كل شيء؛ في السياسة، في العمل، في مخاوف الطفولة، وفي الأسباب الحقيقية التي أدت لانفجارهما السابق.

في مساء يوم خميس، قرر مازن أن يغلق أهم ملف كان سبباً في الخلاف: ملف "الهروب".

كانا يجلسان في السيارة، يتناولان الثلجات كما كانا يفعلان أيام الجامعة.

أخرج مازن ظرفاً من جيب السيارة، وناولته لهناء.

• "ما هذا؟" سألت باستغراب.

• "افتحيه."

فتحت هناء الظرف، لتجد أوراقاً رسمية تخص عقد العمل في دبي، وعليها ختم أحمر كبير بكلمة "ملغى".

نظرت إليه بصدمة:

• "مازن.. أنت ألغيت السفر؟ لكن هذا كان حلمك، وكنت تقول إنه نقلة نوعية في حياتك المهنية."

ابتسم مازن بهدوء، وأدار جسده ناحيتها:

• "اكتشفت شيئاً مهماً يا هناء. السفر لم يكن حلماً، كان (هروباً). كنت أريد الهروب من الضغط، من الروتين، ومن شعوري بالعجز في علاقتنا. كنت أعتقد أن تغيير المكان سيغير حالتي النفسية."

أخذ نفساً عميقاً وأكمل:

• "لكنني عندما جربت الحياة بدونك هنا، وعندما تخيلت نفسي ناجحاً هناك ولكن وحيداً، أدركت أن النجاح الحقيقي هو أن أنجح في بيتي أولاً. دبي سنتنظر، والفرص ستأتي، لكن أنت.. إذا ضعت مني مرة أخرى، فلن تعوضك أي مدينة في العالم."

دمعت عينا هناء. هذا هو "الأمان" الذي كانت تبحث عنه عند حاتم، وجدته الآن عند مازن، لكن بنكهة الحب الحقيقي.

• "وأنا.. قالتها بصوت متهدج. "أنا أيضاً لدي اعتراف. تذكرين (قائمة الممنوعات)؟ لقد مسحتها اليوم. أعدت كل صورنا للأرشيف الرئيسي. وقررت أن أتوقف عن لومك على صغانر الأمور. تعلمت أن الكمال لله وحده، وأني كنت قاسية في حكمي عليك."

مد مازن يده ومسح دموعه فرت من عيناها:

• "نحن لسنا ملائكة يا هناء، ولن نكون. سنتشاجر مرة أخرى، وسنختلف، وسأنسى دفع الفاتورة، وستحرقين الطعام.. لكن الفرق هذه المرة، أننا لن نسمح لهذه التفاهات أن تكسرننا. اتفقنا؟"

• "اتفقنا."

العودة إلى "مسرح الجريمة"

جاءت اللحظة الأصعب. العودة للشقة.

المكان الذي شهد "المناظرة الأخيرة"، والذي خرجت منه هناء وهي تجر حقيبتها وقلبها المكسور.

وقف مازن أمام باب الشقة، ومعه هناء.

ترددت هناء للحظة. هل ستهاجمها الأشباح القديمة بمجرد الدخول؟

فتح مازن الباب.

كانت الشقة تفوح برائحة البخور والزهور. لقد غير مازن ترتيب الأثاث بالكامل. اشترى ستائر جديدة بألوان زاهية اختارها هو لتناسب ذوقها، ووضع إطارات صور جديدة.. فارغة.

دخلت هناء تتلفت حولها. المكان مألوف، لكنه جديد.

"لقد غيرت كل شيء." همست باعجاب.

"كان يجب أن نمسح أثر تلك الليلة." قال مازن وهو يقف خلفها. "هذا بيت جديد، لقصة جديدة."

أخذها من يدها ووقف بها أمام الطاولة التي وضعت عليها خاتمها يوم الرحيل.

كانت الطاولة فارغة الآن، إلا من علبة قطيفة صغيرة زرقاء.

خفق قلب هناء.

حمل مازن العلبة، ونظر في عينيها نظرة عميقة، مليئة بالحب والنضج والرجاء:

"هناء.. أنا لا أطلب منك أن تكلمي ما بدأناه سابقاً. أنا أطلب منك أن تبداي معي رحلة جديدة تماماً.

رحلة فيها مازن الذي تعلم الدرس، وهناء التي سامحت وتجاوزت."

فتح العلبة. كان الخاتم يلمع، وكأنه اشتاق لإصبعها.

"هل تقبلين أن تكوني شريكتي في المناظرات القادمة؟ ولكن بشرط.. أن تنتهي كل مناظرة بصلح، لا برحيل."

ضحكت هناء من وسط دموعها، ومدت يدها اليسرى:

"أقبل.. يا مازن. أقبل بكل شروطي وشروطك."

ألبسها الخاتم.

في تلك اللحظة، شعرت هناء بدفع المعدن يلامس جلدها، وكأن تياراً من الحياة عاد ليسري في عروقها.

لم يكن الخاتم قيداً هذه المرة، بل كان "عهد ولاء".

اقترب منها مازن، وضمها إليه بقوة. عناق طويل، عميق، وثابت. عناق يختلف تماماً عن عناق الوداع الهش.

في حضنه، أغلقت هناء عينيها، ورأت شريط ذكرياتهم يمر سريعاً: الحب الأول، الزواج، الملل، المشاكل، الانفصال، الألم، التخبُّط مع مي وحاتم، الإدراك، والآن.. العودة.
لقد اكتملت الدورة.

بدأوا من الحب، وداروا دورة كاملة من الوجد، ليعودوا إلى الحب مرة أخرى، لكنهم عادوا وهم أثقل وزناً، وأعمق فهماً.

همس مازن في أذنها:

• "حمد الله على السلامة يا حبيبتي."

• "الله يسلمك يا مازن.. أخيراً.. أنا روحت."

أغلقت الدائرة، ولم يتبقَّ أي ثغرة ليدخل منها الغرياء أو الشكوك.

لقد عادوا لبعضهم، ليس لأنهم لا يجدون بديلاً، بل لأنهم تأكدوا بعد التجربة.. أنهم لا يريدون بديلاً.

الفصل الخامس والعشرون: ما تبقى منا (الخاتمة)

مرت ثلاث سنوات على ليلة العودة.

لم تكن سنوات وريدية خالية من المشاكل كما في قصص الجنيات، بل كانت سنوات حقيقية. تشاجر مازن وهناء عشرات المرات، واختلفا حول ميزانية البيت، وحول تربية طفلتهم الأولى "تور"، وحول وجهات السفر. لكن شيئاً جوهرياً كان قد تغير.

اختلفى "الصمت العقابي".

اختلفت فكرة "الرحيل" كخيار مطروح على الطاولة عند كل خلاف.

أصبح الخلاف ينتهي بجملة سحرية تعلموها من درس الفراق القاسي: "أنا غاضب منك الآن، لكنني ما زلت أحبك، وسنحل هذا الأمر."

في شرفة منزلهم الجديد:

كانت ليلة شتوية دافئة. جلس مازن وهناء يراقبان ابنتهما وهي تحاول المشي خطواتها الأولى المتعثرة في الصالة بالداخل. ارتشفت هناء من كوب الشاي، ونظرت لمازن الذي خط الشيب رأسه بشكل أوضح الآن، مما زاده وقاراً.

• "مازن.."

• "نعم يا حبيبتي."

• "هل تتذكر (مي) و(حاتم)؟"

لم يعد ذكر الأسماء يسبب توتراً. لقد أصبحوا جزءاً من التاريخ الذي شكل حاضرهم.

ابتسم مازن وهز رأسه:

• "بالتأكيد. رأيت إعلاناً لمعرض مي الجديد الأسبوع الماضي، يبدو أنها حققت حلمها وأصبحت فنانة مشهورة. هي تستحق ذلك."

ردت هناء بابتسامة صافية:

• "وحاتم تزوج منذ شهرين، رأيت الصور بالصدفة. يبدو سعيداً مع امرأة تشبهه، هادئة ورزينة."

• "الحمد لله." قالها مازن بصدق. "لقد كانوا أشخاصاً رائعين، لكنهم جاؤوا في التوقيت الخطأ، وللأشخاص الخطأ."

نظرت هناء للخاتم في يدها، ثم نظرت لندبة صغيرة قديمة في إصبعها، تلك التي حدثت يوم خلعت الخاتم بالعنف في ليلة "المناظرة الأخيرة". الندبة لا تزال موجودة، لكنها لم تعد تؤلم.

• "عارف يا مازن؟ ساعات بسأل نفسي.. إنا خسرننا إيه في التجربة دي؟ وكسبنا إيه؟"

اعتدل مازن في جلسته، ونظر في عينيها بعمق الحب الذي صقلته الأيام:

• "خسرننا (البراءة) يا هناء. لم نعد نصدق أن الحب وحده يكفي دون مجهود. وخسرننا الغرور، غرور إننا ضامنين وجود بعض."

صمت قليلاً ثم أكمل بصوت دافئ:

- "لكن ما تبقى منا.. هو الأهم. تبقى منا (الخوف المشروع)؛ الخوف الذي يجعلنا نحافظ على بعضنا. تبقى منا (الصدقة) التي بنيناها من جديد على ضفاف النيل. والأهم.. تبقت الذكرى."
- "الذكرى؟"

- "نعم. ذكرى الوجد. كلما فكرت في إهمالك، أتذكر برودة الشقة وأنا وحدي، فأترجع. وكلما فكرت في العناد، تتذكرين شعور الغربية مع شخص آخر، فتترجعين. الوجد الذي عشناه أصبح هو (الترياق) الذي يحمينا من تكرار الغلطة."

دخلت الطفلة الصغيرة "نور" إلى الشرفة، وهي تضحك بصوت عالٍ، وارتمت في أحضان أبيها.

حملها مازن، وقبلتها هناء.

في هذه اللحظة، اجتمعت العائلة الصغيرة.

الماضي بكل آلامه، والحاضر بكل استقراره، والمستقبل المتمثل في هذه الطفلة.

نظرت هناء لمازن وقالت:

- "هل تعلمين لماذا سميت الرواية (المناظرة الأخيرة)؟"

ضحك مازن:

- "لأننا بعدها قررنا ألا نتناظر أبداً؟"

- "لا..". ابتسمت وهي تمسك يده ويد ابنتهما. "لأن تلك الليلة كانت آخر مرة نتحدث فيها كـ (خصوم). بعدها، أصبحنا نتحدث كـ (حلفاء). كانت آخر مناظرة لإثبات من هو الأقوى، وبداية حوار لإثبات من هو الأبقى."

أسندت رأسها على كتفه.

غابت الشمس تماماً، وأضاءت أنوار المدينة.

لم تكن قصتهم مثالية. كان فيها كسور، وشروخ، ولحظات ضعف، وخيانات شعورية.. لكنها كانت قصة "ناجية".

وفي عالم مليء بالنهايات السريعة، كان بقاؤهم معاً هو أعظم انتصار.

رسالة أخيرة

إلى كل من يقرأ..

الحب ليس أن تجد شخصاً لا تختلف معه، بل أن تجد شخصاً لا تهون عليه العشرة حين تختلفان.

الرحيل سهل، والاستبدال أسهل.. لكن البقاء وإصلاح ما كسر هو مهارة لا يتقنها إلا الصادقون.

لا تتركوا "مناظرة" غاضبة تكون هي المشهد الأخير.

فقد تكون "المناظرة الأخيرة" هي بداية الندم الأبدي، أو.. إذا كنتم شجعاناً مثل مازن وهناء.. قد تكون بداية الفهم الحقيقي.

تمت.

لماذا كتبت هذه الرواية؟

لم تكن كتابة "المناظرة الأخيرة" مجرد رحلة سردية لأحداث من وحي الخيال، بل كانت، وبكل صدق، رحلة "استنزاف نفسي" عشتها بكل جوارحي.

لقد كتبت هذه السطور لأنني، وبكل أسف، أرى "مازن" و"هناء" في كل مكان حولي. أراهم في وجوه أصدقائي، وفي ككيات المقاهي، وفي النظرات التائهة للأزواج في الأماكن العامة.

كتبتها لأنني مرعوب من "هشاشة" العلاقات في زماننا هذا. الزمن الذي أصبحنا نستبدل فيه البشر كما نستبدل هواتفنا القديمة عند أول عطل بسيط. الزمن الذي أصبح فيه "الحظر" أسهل من "العتاب"، والهروب أسهل من المواجهة.

لقد بكيت وأنا أكتب فصول الوحدة، وشعرت بقلبي ينقبض في فصول المقارنة، وتمنيت لو أستطيع التدخل لأصرخ في وجه أبطالي: "لا تتركوا أيدي بعضكم!". كنت أكتب وكانني أذاف عن قضيتي الشخصية، أو كأنني أحاول ترميم شروخ جيلي بالكامل من خلال قصة حب واحدة.

هذه الرواية ليست مجرد قصة حب عادت للحياة، بل هي "اعتذار" لكل حب قتلناه بقلة صبرنا، وهي "دعوة" لكل اثنين يقفان الآن على حافة الهاوية.. أن يمنحا نفسيهما فرصة أخيرة. فرصة حقيقية.

أتمنى أن تكون كلمات "مازن" ودموع "هناء" قد لمست شيئاً بداخلكم، كما غيرت الكثير بداخلي.

بكل ود،

معتز هيثم

1 ديسمبر
